

## ديوان ابن الرومي

(١)

### كلمة عامة تمهيدية

هذا الكتاب أصغر من عنوانه . اسمه « ديوان ابن الرومي » وحقيقته مختارات من شعره انتخبها شاب فاضل من أنصار المذهب الجديد في الأدب ، هو كامل أفندي كيلاني ، وأهداها إلى روح والدته التي « فقد يفقدها أكبر مصدر من مصادر الحنان والعطف » وجعلها ثلاثة أجزاء في مجلد واحد ، جملة صفحاته خمسمائة ، فيها قريب من سبعة آلاف بيت . وصدرها بمقدمة رائعة وضعها صديقنا الأستاذ العقاد في « عبقرية ابن الرومي » لم يدع فيها شاردة ولا واردة ، ولا ترك شيئاً لسواه يقوله ، حتى صار قصارى غيره إذا كتب أن يترسمه ويفصل ما أجمل .

وهذه المختارات ، في ذاتها ، خير ما كان ينتظر . وإن كانت على هذا مجموعة حيثما اتفق ، ومسرودة على غير نسق مفهوم ونظام معلوم ، ولم تكن وراءها فكرة ظاهرة أو غرض يطالعك ، سوى حشد طائفة من الشعر ! ولقد والله ألمنا ، ونحن نتصفح الكتاب ونعبر ما فيه من المختارات ، أن نرى ابن الرومي مقطّع الأوصال مبعثر الأشلاء على هذه الصورة ! ولعلنا مخطئون أو مبالغون في إساءة الظن بالمختارات على العموم ، وفي عدم الركون إليها والاعتماد عليها . ولكن ابن الرومي ليس كغيره من شعراء العرب ، وما في الوسع أن تقتطع له أبياتاً من هنا ، وأخرى من ههنا ، ثم تقول هذا هو ابن الرزني . كما لا يسعك أن تختار نخباً من

رواية لشكسبير مثلاً ، وأن تزعمها بعد ذلك هملت أو الملك لير أو مكبث أو غير ذلك ، إنما كان هذا هكذا لأن ابن الرومي أقرب إلى شعراء الغرب وبهم أشبه ، ولأن البيت في قصائده يندر أن يكون وحدة قائمة بنفسها ، مستقلة عما قبلها وبعدها إلا من حيث معاني النحو ، كما هو في قصائد العرب . وكثيراً ما يشذ ويخالف أوضاع العرب في اعتبار البيت كلاماً تاماً في ذاته غير متعلق بما يليه على مقتضى أحكام اللغة .

ولسنا نطمح أن نضيف شيئاً إلى ما قاله صديقنا الأستاذ العقاد في مقدمته الجامعة ، فأننا من ذلك على يأس كبير ، وإنه ليكون حسبنا أن نستطيع أن نصف هذا الشاعر ، لا أن نخلله ، لمن لا يعرفون عنه إلا اسمه ، وإلا بضعة أبيات سارت على الرغم من خمول قائلها ، وأن نحبه إليهم ، ونغريهم بقراءته والإقبال على مطالعته . وابن الرومي ، بعد ، أحب شعراء العرب إلينا وأعزهم علينا ، فليس أعذب ولا أشهى لدينا من أن نقضى ساعة معه ولو كل أسبوع .

وكأننا بابن الرومي قد بدأ النحس يرايله ! ففي بضعة أعوام طبع جزء من ديوانه وجمعت له مختارات يستحق جامعها وناشرها أطيب الثناء . وما بالقليل أن يفوز بذلك من خمل في حياته خمولاً منقطع النظر في تاريخ الآداب ، مع وضوح حقه والإقرار له بالتفرد حتى في زمانه ، ومن خفى شأنه أكثر من عشرة قرون طويلات المدد ! وناهيك برجل كان يسح بالشعر سحاً ، ويملاً الدنيا بالرائع منه المتداول الذي ينشد في مجالس الخلفاء والأمراء والوزراء ، ويروى في حلقات العلماء والأدباء ، وهو مع ذلك يجوع ويظمأ ويعرى ، ولا يجد من يسد خلته ، ويستتر فاقتة ، ثم يموت فيطوى معه ذكره وشعره ، ويظل مغموراً كل هذه القرون لا يعرف

عنه حتى الخاصة أكثر مما ورد في تراجم العرب ، غفر الله لهم ، من أن اسمه على بن العباس بن جريج أو جورجيوس - فإن في اسم جده شكاً واختلافاً !! - وأن ولادته كانت ببغداد يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين في موضع يعرف ، أو كان يعرف ، بالعقيقة ودرب الختلية في دار بازاء قصر لمولاه عيسى بن جعفر بن المنصور من نسل العباس بن عبد المطلب ! ثم كأنه لم يكن ! ؟

أما كيف كان يعيش أو ماذا كان يصنع غير الشعر الذي يقولون « إنه كان أقل أدواته » فلا يدري أحد ! فليس أمامنا ما نعول عليه سوى شعره ، ويؤخذ منه أنه كانت له ضيعة ! نعم ضيعة مغللة أشار إليها في قوله يعتذر لبعضهم من التخلف والانقطاع عنه :

|                            |                             |
|----------------------------|-----------------------------|
| وبعدُ فإن عذري في قصوري    | عن الباب المحجَّب ذى البهاء |
| حدوثُ حوادثٍ منها حريق     | تحيفُ ما جمعت من الثراء     |
| فلم أسأل له خلفاً ولكن     | دعوت الله مجتهد الدعاء :    |
| ليجعله فداءك إن رآه        | فداءك ، أيها الغالى الفداء  |
| وأما قبل ذاك فلم يكن لى    | قرارٌ فى صباح أو مساء       |
| أعانى « ضيعة » ما زلت منها | بحمد الله قدماً فى عناء     |

غير أن الله لم يبارك له فيها ولا فى غلتها ! كما هو ظاهر من الآيات التى أوردناها . وكان إذا أخطأه الحريق الذى يتحيف ماله ، لا يخطئه الجراد يأتى على زرعه كما يقول :

|                        |                            |
|------------------------|----------------------------|
| لى زرع أتى عليه الجراد | عادنى مذ رُزيت العواد      |
| كنت أرجو حصاده فأتاه   | قبل أن يبلغ الحصاد الحصادُ |

وكانت له دار غير التى مات فيها ففصبتها منه امرأة !! فكاد يجن ! واستصرخ الوزير عبد الله بن سليمان بقصيدة يقول فيها :

وفلت منه كل ناب ومخلب  
غمومى، موقى كل سوء ومعطب  
عقارى؟ وفى هاتيك أعجب معجب  
«فإنك لم يغلبك مثل مغلب» !  
إليك بحقى هارب كل مهرب  
على أيد الأركان لم يتوثب  
وفى النكر من وجهين موضع معتب  
ألا من رأى صقراً فريسة أرنب!  
بحكم مُمر أو بلطف مسبب

أحين أسرت الدهر بعد عتوه  
فأصبحت مكيفاً همومى مزايلاً  
تهضمتنى أنثى؟ وتغصب جهرة  
لقد أذكرتنى لامرئ القيس قوله  
أجرنى! وزير الدين والملك إننى  
توثب شخص واهن الركن والقوى  
هو النكر من وجهين: غصب وبدعة  
فلا تسلمنى للأعداى وقولهم :  
أريد ارتجاع الدار لى كيف خيلت

يعنى بحكم قضائى نافذ أو بحيلة لطيفة . فيا له من مسكين !  
ولم يكن مولاه هذا العيسى بن جعفر يوليه شيئاً من جاهه أو ماله  
فكثر عتاب ابن الرومى له ومما قاله :

لم لا أجرد والسيوف تجرد ؟  
يا للرجال وإننى لمهند ؟  
ذكر فلم ألقى ولا أُنقلد ؟  
فيزان بى بطل ويكفى مشهد ؟  
ما زال فيكم يستعان فيحمد  
بيضاء ماجحدت وليست تجحد  
يصل القديم وتستتم به اليد  
لهما وحداً منهما لا ينفد  
منكم فمثل ، زروعكم تستعهد  
وولاه إياك إذ هو أمرد  
فرداً ، فإنى فى المودة أُوحد  
ترعى ، أما لى زلة تستغمد ؟

مالى أسل من القراب وأغمد ؟  
لم لا أجرد فى الضرائب مرة  
بل قد حكى التجرب أنى صارم  
لم لا أحلى حلية أنا أهلها  
أنا من علمت مكانة وابن الذى  
لا تبثروا عندى وعند أبى يدا  
أولسوا وليكم حديثاً مثله  
يشمر لكم حمدين : حمداً منكم  
أرعوا زروعكم عيون تعهد  
أنا من عرفت وفاءه وصفاءه  
إلا أكن فى كل ذلك أُوحداً  
هبنى امرأة ليست له بك حرمة

فلم يجده العتاب والتألف وقضى أكثر عمره فى ضيق ليس أبلغ فى  
الدلالة على أثره فى نفسه وفى جسمه من قوله :  
أيما حسرتا إن أفسد الضيق صحتى

فضاعف حاجاتى وأوهى قوى نهضى !  
وكان يبلغ من فاقته ورقة حاله وهوان أمره ، أن كان يدفع عن الأبواب  
بفضاظة ، وإلى هذا يشير بقوله :

وكم حاجب غضبان كاسر حاجب      عما الله ما فيه من الكسر بالكسر  
عبوس إذا حيته بتحية      فيالك من كبر ومن منطق نزر !  
يظل كأن الله يرفع قدره      بماحط من قدرى وصغر من أمرى  
إذ ما رأتى عاد أعمى بلا عمى      وصم سمعاً ما بأذنيه من وقر  
أزف إليك البكر مازف مثلها      فيدفع منها فى الترائب والنحر  
ومن شيم الحجاب أن قلوبهم      قلوباً على الآداب أقتى من الصخر  
بل كان من الفقر بحيث كان      يستجدى من إخوانه الكساء فلا يصيب  
منه قصاصة ، وله فى ذلك شعر كثير ومنه قوله :

جعلت فداك لم أسألك      ذاك الثوب للكفن !  
سألكه لأبيه      وروحي بعد فى البدن

وربما فاز ، ولكن بما لا يعد ثوباً إلا على المجاز ! كما يقول فى ثوب  
عتيق جاء مرة :

قد طوى قرناً فقرنا      وأناساً فأناساً  
لبس الأيام حتى      لم يدع فيها لباساً  
غاب تحت الحس حتى      ما يرى إلا قياساً !

وكان يمدح أهل الثراء فلا يصيب إلا الرد ويستصرخ القادرين فلا يفتنون

عنه . بل لا يقرأون كلامه أحياناً كما يدل على ذلك قوله لصاعد ابن  
مخلد :

|                        |                         |
|------------------------|-------------------------|
| يا سيداً لم يلتبس عرضه | بذم رائيه ولا خبايره    |
| ظاهره أحسن من غيبه     | وغيبه أحسن من ظاهره     |
| ومن إذا الرأى خبا نوره | فإنما يقدح من خاطره     |
| فلا ترى أثقب من ذهنه   | فيه ولا أيمن من طائره   |
| أول ما أسأل من حاجة    | أن تقرأ الشعر إلى آخره  |
| قراءة تصدر عن نية      | تفهم قلب المرء عن ناظره |

ولم يكن أهله على ما يظهر أرفق به ولا أحسن رعاية له كما هو واضح  
من قوله :

لِي ابن عم يجر الشر مجتهداً      على قدمًا ولا يصلى له ناراً  
يجنى فأصلى بمايجنى، فيخذلني      وكلما كان زنداً كنت مسعاراً

وقوله من قصيدة أخرى وهو أوضح وأعم :

وأنى لبرٍّ بالأقارب واصلٌ      على حسدٍ في جلهم وعلى بغضٍ  
ولو اقتصر الأمر على ذلك لكان بعض الشيء ولكن شيخنا كان أيضاً  
يتطير . وكان طباشراً وبه حماقة . أو إن شئت فقل إنه كان لطيف الشعور  
دقيق الحس عارفاً قدر نفسه وأقدار غيره من معاصريه ، فأورده ذلك موارد  
مرة ، وكان ربما لزم بيته أياماً لا يخرج ولا يتصرف ، وحوله صبية  
ونساء جياع ظماء ، مخافة أن يبرح الدار فيباغته ما لا قبل له باحتماله  
مما يتطير منه ، وقد كان يتطير من كل شيء ! والناس لا يدركهم عليه  
عطف ، ولا تأخذهم بضعفه هذا رحمة ، ولا يصددهم إنصاف أو تقدير

عن معايشته بما يكره وما يثقل وقعه عليه . فواحد يعيبه بمشيته ويزعمها  
مثل مشية المخنثين ، كما فعل أخو « نضير » وكان ابن الرومي يريد أن  
يتزوج ابنته . وآخر يقدح في شعره وهو يستجيده ليهيجه ويدفعه إلى  
الهجاء ، وكان ذلك دأب الأخفش ووكده ، وثالث يعيره ببغضه للقلانس  
والبرانس وإثارة العمامة على خلاف أهل عصره . ورابع يستفزه بالإيماء  
إلى صلته والتضاحك منها . وهو أحس بذلك كله من أن يستطيع الاحتمال  
والسكوت ، حتى لقد كان في شغل مضى من الرد على عائبه ممن لا يخفى  
عليهم مكانه ، ولا يقصدون إلا إلى استثارته ليركبوه بالمزاح .

وهكذا عاش ابن الرومي . فقر وغمط وحرب طاحنة الأرجاء بينه  
وبين مناجزیه من العجادين والهازلين ، ولم يكن ينقصه إلا أن يدس عليه  
الوزير أبو القاسم من يطعمه فطيراً مسموماً لتتم رواية الشؤم التي لا تزال  
لها ذيول على ما يظهر ! فقد كتبت عنه منذ عشر متين بضع مقالات فلم  
أُكد أفرغ من الأولى أو الثانية حتى كسر رجلى ما لا يكسر ! وشرح  
الشيخ شريف الجزء الأول من ديوانه فأحيل إلى المعاش ! وطبع صاحب  
المكتبة التجارية هذه المختارات من شعره فهيضت ساقه ! فعسانا حين نعود  
للکلام عليه لا تكون قد دقت عنقنا !

(٢)  
أصله

لم يكن ابن الرومي عربياً ولا شبيهاً بالعرب وإن كانت العربية لغته التي لم يكن يعرف - أو التي لا نعلم أنه كان يعرف - سواها ، ولقد ولد وشب وترعرع بين العباسيين ولاسهم وصار منهم « بقضاء من ختمت رسل الإله به » كما يقول ، ولكنه لم يصير بذلك كالعرب ، لا في طبيعته ولا في فنه ولا في أساليب تفكيره ، بل حتى ولا في عاداته وأخلاقه . وقد ذهب بعض كتاب العرب إلى أنه سمى ابن الرومي لأنه كان جميلاً في صباه ، وأوردوا ذلك على أنه احتمال معقول وتعليل مقبول . وليس الأمر كذلك ولا هو يمكن أن يكون كما زعموا ، وأحسب من يقول بذلك إنما يدل على أنه لم يقرأ شعر ابن الرومي بغير عينيه .. فإن الرجل لم يدع مجالاً للشك في أنه رومي على الحقيقة لا على المجاز . ومن غريب ما يلاحظ المطلع على ديوان هذا الشاعر ، أنه ينمى نفسه إلى الروم ، ويذكر في أكثر من موضع واحد أنهم أصله ، وإن كان جده لأمه فارسياً كما أن جده لأبيه رومي . وشاهدنا على ذلك قوله في نونيته الشهيرة التي مطلعها :

أجنيبك الوجد أغصان وكتبان      فيهن نوعان : تفاح ورومان

• • •

|                                |                               |
|--------------------------------|-------------------------------|
| إن الرحيل إلى من أنت آمله      | أمن ، لمزعمه بالتجح إيقان     |
| فادع القوافي ونص اليعملات له   | تجك كل شرود وهي مذعان         |
| إن لم أزر ملكاً أشجى الخطوب به | فلم يلدني أبو الأملاك (يونان) |
| بل إن تعدت فلم أحسن سياستها    | فلم يلدني أبو السواس (ساسان)  |

ولكنه يدع الفرس قوم أمه ولا ينتسب إلا للروم أهل أبيه ، حتى حين

يفخر بمواليه من بنى العباس ويعتدهم أهله ، مع إنه لم يكن يخفى عليه  
مقدار تغلغل الفرس فى الدولة العباسية وتغلب المندية الفارسية عليها :

|                          |                         |
|--------------------------|-------------------------|
| قوى بنو العباس ، حلمهم   | حلمى كذلك ، وجهلهم جهلى |
| نبلى نباهم ، إذا نزلت    | بى شدة ، ونباهم نبلى    |
| لا أبتغى أبداً بهم بدلاً | لف الإله بشملهم شملى !  |
| ومتى وردت حياضهم معهم    | لم يشربوا صفواتها قبل   |
| قوم ، غدا برى وتكرمتى    | من شغلهم ، ومدحهم شغلى  |
| المنعمون على أنعمهم      | والحامدون لكل ما أبلى   |
| أنا منهم ، بقضاء من ختمت | رسل الإله به ، وهم أهلى |
| مولاهم وغداً نعمتهم      | والروم حين تنصنى ، أصلى |

ويكرر ذلك حين يمدح الأخفش المعاصر له وبفضله على الأخفش  
القديم ، ويذكر أنه غريب بين الاثنين وأنه لذلك بعيد عن المحابة ، وفى  
هذا يقول :

|                            |                           |
|----------------------------|---------------------------|
| ذكر الأخفش القديم فقلنا    | إن للأخفش الحديث لفضلا    |
| وإذا ما حكمت- والروم قومي- | فى كلام معرب كنت عدلا     |
| أنا بين الخصوم فيه غريب    | لا أرى الزور للمحابة أهلا |

وعاتب محمد بن عبد الله فيقول فى آخر القصيدة :

إذا الشاعر الرومى أطرى أميره فندهيك من مطرى وناهيك من مطر  
لا كآبى نواس الذى كان يخلط فى دعوته ويتسبب مرة إلى النزارية ،  
وينتمى مرة أخرى إلى اليمانية ، وكان قبل ذلك يتعاجم فى شعره ، وأنه  
ليعلم أن الفرس قد مضوا بأصله وإنهم أحق به إذا أراد أن يدعى لأحد .  
ويظهر أنه كان شديد الإحساس بروميته والشعور بغرته . والاثنان

متلازمان . فتراه يزهو تارة ويباهى بأن الروم أصله ، كما هو ظاهر مما مر بك من كلامه . ويألم تارة أخرى أنه غريب بين العرب ، وفي ظلهم ، وأنه فقد بذلك وطنه . كما تتبين ذلك من قوله لبعضهم وكان قد بلغه أنه يحسده ويعيب شعره ، ولعله الوحيد الذى فرق بين الجنسية الدينية والجنسية القومية وأحس الألم لفقدانه « الوطن » :

|                              |                               |
|------------------------------|-------------------------------|
| أيتها الحاسدى صحبتى العسر    | وذمى الزمان والاخوانا         |
| حسداً هاجه على ثلب شعرى      | ولقائى معبساً غضباناً         |
| وانتقاصى مع « العدو » وقد كا | ن يرى لى نقائصى رجحاناً       |
| ليت شعرى ماذا حسدت عليه      | أيتها الظالمى إخوانى عياناً ؟ |
| أعلى أننى ظلمت ، وأضحى       | كل من كان صادياً رياناً ؟     |
| أم على أننى ثكلت شقيقى       | وعدمت الثراء والأوطاناً ؟     |

ولسنا نظن أحداً سيقول إنه ما جاء بالأوطان إلا من أجل القافية ! فليس ابن الرومى من تعييه القافية أو تضطره إلى غير ما يريد أن يقول . وإنك لتقرأ شعره فيخيل إليك أنه يتناول الألفاظ ويقصرها قسراً على أداء المعانى التى يقصد إلى تبينها والعبارة عنها .

ومن أجل ذلك لم يكن يفخر بقومه كما فعل مهيار الديلمى - وهو فارسى الأصل - حين قال يعنى الفرس :

قومى استولوا على الدهر فتى ومشوا فوق رؤوس الحقب  
بل كان يقول حتى حين يمدح نفسه ويشيد بكرم أخلاقه :

|                               |                                  |
|-------------------------------|----------------------------------|
| أغضى الجفون عن السوءى مراقبة  | لما يكون من الحسنى وما كانا      |
| أجزى الأخلاء صفحاً عن إساءتهم | - إذا أساءوا - وبالإحسان إحساناً |
| أذكر النفس مثنى من محاسنهم    | إذا ذكرت ذنوب القوم أحدانا       |
| وليس ذاك لأبائى ومجدهم        | لكن لأنى اتخذت العدل ميزانا      |

والبيت الأخير هو الشاهد . وهو لفرط إحساسه بغرته دائم الالتفات  
إلى هذا المعنى ، يمدح يحيى بن على المنجم فيقول فيه :

ربّ أكرومة له لم تخلها قبله في الطباغ والتركيب  
غرته الخلائق الزهر في الناس وما أوحشته بالغريب

فكانه يعنى نفسه بهذا البيت ويحاط في التعبير من أجلها ويصف حاله  
هو لا بمدوحه .

ويهجو اسماعيل بن بلبل فلا يرى إلا أن يشتهر بانتسابه إلى شيان زوراً  
ويقول :

تشين حين هم بأن يشيا لقد غلط الفتى غلطاً عجيباً

ويقول في قصيدة أخرى مشنعاً :

|                          |                            |
|--------------------------|----------------------------|
| عجبت من معشر بعفوتنا     | باتوا نبيطاً وأصبحوا عرباً |
| مثل أبى الصقر إن فيه وفي | دعواه شيان آية عجا         |
| بيناه علجا على جلته      | إذ مه الكيمياء فانقلبا     |
| عربه جده السعيد كما      | حول زرينخ جده ذهبا         |
| وهكذا هذه الجدود لنا     | إكسير صدق يعرب النسا       |

\*\*\*

وبعد ، فلأى غاية نأتى بهذه الشواهد ونستكثر منها ؟ أكل ذلك لنقول  
إنه كان رومياً ولم يكن عربياً ؟ أو لم يكن يكفى أن نذكر اسمه ، وأن  
نقول إنه كان مثله أجنبياً من الأمة التي شب وشاب بينها ، ونطق بلسانها  
وحقق علومها ، وتوفر على آدابها ، واستظل بمدنيتها ؟ وما قيمة ذلك ؟  
ألم يكن كغيره من الغرباء من مثل بشار بن برد ومروان بن أبى حفصة

وأبى نواس ومهيار وابن المقفع وابن العميد والخوارزمي وبديع الزمان  
وأبى إسحاق الصائغ وأبى الفرج الأصبهاني وغيرهم من لا يكاد يأخذهم  
حصص ؟ نقول نعم ، كان كهؤلاء من غير الأمة التي نبت فيها ، ولكنه  
يختلف عنهم - أو عن كثير منهم - ويأينهم بأنه احتفظ بطبيعة الجنس  
الذي انحدر منه ، حتى صارت روميته هذه التي يتشبث بها ويعلمها ،  
ولا يكتممها ولا يقشها بالفارسية - مفتاح شعره ونفسه ، وحتى لا سبيل  
إلى فهمه وتقديره بغير الالتفات إليها والتنبيه لها . وإنه ليصلح أن يتخذ  
المرء شاهداً على قوة الوراثة وفعلها ، على الرغم من كل تأثير مناهض لها  
مضعف لفعلها . « فالرومية » كما يقول صديقنا الأستاذ العقاد بحق « هي  
أصل هذا الفن الذي اختلف به ابن الرومي عن عامة الشعراء في هذه  
اللغة ، وهي السمة التي أفردته بينهم أفراد الطائر الصادح في غير سرية .  
وربما بدؤهم في أشياء ، وقصر عنهم في أشياء غيرها ، ولكنه لا يشبههم  
ولا يشبهونه في تفوقه وتقصيره على السواء ، فلهذا انقطع ما بينه وبينهم  
من نسب الأدب وجرثومة الفن ، لا لأنه أفضل منهم جميعاً ولا لأنهم  
جميعاً أفضل منه » .

وسنحاول في المقال الآتي أن ندير هذا « المفتاح » في القفل ، وإنها  
لفرصة نغتنمها لنستأنف ما حاولناه منذ عشر سنين من تعريف الناس بهذا  
الشاعر الفذ ، فلعلنا نوفق فإن المهمة شاقة ، وحبل الكلام طويل ، وشعبه  
كثيرة .

(٣)

شخصيته

(أ)

عاش ابن الرومي ، ما عاش ، ساخطاً على الحياة ناقماً على العصر وأبنائه ، مضطغناً على الزمن وصروفه ، طافح النفس بالمرارة والألم إلى حد لم يعرفه أحدٌ من الشعراء المعاصرين . وشعره الذي قيد فيه كل حالة من حالات نفسه ، وأودعه ما استطاع من التفاتات ذهنه ، حافلٌ بالشواهد على ذلك . وعذره من هذا التمرد عذرٌ كل حساس مصقول النفس مثقف العقل ، تصطدم عنده الآراء والعقائد بمظاهر الحياة وواقع الحال . وليس أقسى من أثر ذلك في النفس ولا أوجع . ولسنا نحتاج أن نرجع إلى عصره بصفة خاصة . فإن الحياة كانت قديماً ومازالت إلى الساعة ، وستظل إلى آخر الزمن ، إن كان له آخر ، صراعاً دائماً وجهاداً متواصلاً . وما نظن الحياة الإنسانية خلعت قط من بواعث السخط ودواعي التذمر . وما كان المرء ليهتدى إلى الشعور بنفسه ولينطق بقوله « أنا » لولا ذلك . ولولا إحساسه إلى جانب هذا - أو قبله - بمحدود قدرته ، وباحتكاكه بما يجاوز هذه الدائرة ، ويحدد هذا المجال ، وقد يعين الجهل أو البلادة أو كلاهما على الرضى وإشعار النفس الراحة الحيوانية ، فلا يرى المرء فيما يحيط به ويضيق عليه ، إلا عدلاً مقنعاً وضرورة لا مهرب منها ، ولا خير في التبرم بها . وليس كذلك المثقف الذكي المشاعر الذي كأنما يحس الحياة بأعصابه العارية . مثل هذا لا يسع طوقه أن يغمض عينيه وينيم أعصابه حتى لا يرى ولا يحس مافي الدنيا من الظلم والغبن والخلط والفساد والتناقض . ومهما كانت وجوه الاختلاف ومواضع التباين بين عصرنا هذا ، مثلاً ،

وعصر ابن الرومى ، فإن مساوى الحياة ومتاعها واحدة . وما كان مسخط  
ابن الرومى على مظهر عارض أو عيب طارئ، فنحتاج أن نصف هنا ما كان  
عليه زمانه ، ولكنه كان على ما يخلو منه عصر ولا يراً من مثله زمن .  
ومن الذى يقرأ قوله مثلاً :

أترانى دون الأولى بلغوا الآ  
وتجارٍ مثل البهائم فازوا  
أصبحوا يلعبون فى ظل دهر  
غير مغنين بالسيف ولا الآف  
ويظلمون فى المناعم واللذات  
لهم المسمعات ما يطرب السا  
نعم ألبستهم نعم الله  
حين لا يشكرونها وهى تسمى  
كم لديهم للوهم من كعاب  
خندريس إذا تراخت مداها  
بنت كرم تديرها ذات كرم  
لذة الطعيم فى يدى لذة المثلثم  
يوتق العين حسن ما فى أكف  
ومزاج الشراب إن حاولوا المز  
من جوار كأنهن جوار  
لو ترى القوم ينهن لأجبرت  
من أناس لا يرتضون عبيداً  
وكذلك الدنيا الدنية قدراً

مال من شرطة ومن كتاب ؟  
بالمنى فى النفوس والأحباب  
ظاهري السخف مثلهم لعاب  
لام فى موطن غناء ذباب  
بين الكواعب الأنراب  
مع والطائفات بالأكواب  
ظلال الغصون منها الرطاب  
لا ولا يكفرونها بارتقاب  
وعجوز شبيهة بالكعاب  
لبست جذة على الأحقاب  
موقد النجير مثير الأعقاب  
تدعو الهوى دعاءً مجاب  
ثم تسقى ، وحسن ما فى رقاب  
ج رضاب ياطيب ذاك الرضاب  
يتسلسلن من مياه عذاب  
صراحاً ولم تقل باكتساب  
وهم فى مراتب الأرباب  
تصدى لألأم الخطاب ، إلخ

نقول من الذى يقرأ هذه الأبيات - وإن كان ما حذفناه أضعاف  
ما أثبتناه - ولا يحس ما فيها من الصدق ، ولا يذكر بها كثيرين ممن يرفلون

فى حلل السعادة ، وهم لم يمدوا إليها يدًا ، ولا سعت بهم فى سبيل اكتسابها قدمٌ ولا استحقوها إلا بأن الحظ أورثهم إياها ، وإن لم يكونوا خير الناس ولا أكفأهم ولا أفضلهم ؟

وعسى من يعترض فيقول إن هذا أشبه بأن يكون حسدًا لا سخطًا على جور الحظ ، ودليل ذلك قوله بعد أبيات :

لم أكن دون مالكي هذه الأملا ك لو أنصف الزمان المحاي

نقول كلا ! ليس هذا فى شيء من الحسد . وإنما الذى يغلط المعترض أن ابن الرومى يعرف قدر نفسه ولا يخفى عليه مكانه من الفضل والاستحقاق ، وأن إحساسه بثقل القيود المحيطة به ، وشعوره بمرقها وحزها ، وإدراكه لمبلغ تعويقها ، كل هذا قد أبرز « أنا » فى شعره وفى حياته إلى المكان الأول من الواعية . ونظن أننا فى غنى عن الاطالة فى تبين أن الذاتية إنما يُبرزها إدراكُ حدودها والتصادمُ بما هو خارج عنها ، إذا صح هذا التعبير . ومن الجلى أن الرجل الذى تتدفق حياته فى مجرى لين لا يعوقه شيء ، يختلف إحساسه بذاتيته عن تعرضه العقبات فى كل خطوة .

وقد كان ابن الرومى يريد أن يحيا حياة فنية : أى حياة تكون أقرب إلى مثله العليا التى كان ينشدها ، وأخلق بما يفهمه من وظيفة الشاعر وأليق بمنزلته ، كما هى فى نظره ، فبغى ذلك وعجز عنه ولم يظفر به ، وعزّه أن يكيف نفسه على مقتضى الظروف والأحوال التى تحيط به ، ومن هنا حفل شعره بذكر نفسه ، واكظ بالمقابلة بين الرغبة والامكان ، وبين الأمل والواقع .

ونرجع إلى القصيدة التى سقنا منها هذه الأبيات ، فنقول إن ابن الرومى بعد أن أفاض فى صفة هؤلاء الناس وما ينعمون به استطرد إلى ذكر رجل

رآه أحق بهذه النعم الجزيلة منهم وأسيف لما هو فيه ولعدم انتفاعه بفضله وعلمه ، فقال :

|                            |                         |
|----------------------------|-------------------------|
| كلين عمار الذي تركه        | حقاً الزمان للمرتاب     |
| من فتي لو رأيته لرأت عينا  | ك علماً وحكمة في ثياب   |
| بزه الدهر ما كسا الناس إلا | ما عليه من لحمه والأهاب |
| أو حلى ظرفه التي نحسته     | فلو استطاع باعها بجراب  |
| سوء سوء لصحة دنيا          | أسخطت مثله من الأصحاب   |

وليس ابن عمار هذا الذي عدا عليه الدهر وسلبه كل ما كسا الناس إلا اللحم والجلد - نقول ليس هو بالذي كتبت إليه القصيدة بل ذاك غيره . فليس بابن الرومي حسدً ، وإنما هو سخط على ظلم الحظوظ . ويؤكد ذلك ، وإنه لا يقصد إلا إظهار ما في الدنيا من التخليط والغبن ، أمحائه بعد ذلك في القصيدة عينها على الشرط وهم الأعوان الذين يوكل إليهم حفظ الأمن :

|                            |                                     |
|----------------------------|-------------------------------------|
| شرطٌ خولوا عقائل بيضاً     | لا بأحسابهم بل الأكاب               |
| فاذا ما تعجب الناس قالوا : | هل يصيد الظباء غير الكلاب؟          |
| أصبحوا ذاهلين عن شجن النا  | س وإن كان جبلهم ذا اضطراب           |
| في أمور وفي خمور وسمو      | ر وفي قاقم وفي سنجاب <sup>(١)</sup> |
| وتهاويل غير ذاك من الرقم   | ومن سندس ومن زرياب                  |
| في حبير منمنم ، وعبير      | وصحان فسيحة ورحاب                   |

(١) السمور والقاقم بضم القاف الثانية والسنجاب حيوان تتخذ فراؤها لنعمتها ونفاستها .

فى مىادين يخرقن بساتين      تمسّ السريوس بالأهداب  
ليس ينفك طيرها فى اصطخاب      تحت أظلال أيكها واصطحاب  
عندهم كل ما اشتهوه من الآ      كال والأشربات والأشواب  
والطروقات والمراكب والول      مدان مثل الشوادن الأسراب  
واليلنجوج فى المجامر والند      ترى نشره كمثل الضباب

ولا ينبغى أن يفوت القارئ وهو يقرأ هذه القصيدة وغيرها من مثيلاتها التى قد تتخذ دليلاً على ما انطوت عليه نفس ابن الرومى من الحسد أو الحقد ، نقول لا ينبغى أن يفوته أن الرجل كان دقيق الحس لطيف الشعور ، وأنه كان من قوة الخيال بحيث يستطيع أن يحضر لذنه ويتمثل أمامه ما يتخيله ، ويجسده لنفسه كأنه واقع يحس ويلمس . ومن هنا تراه إذا وصف أفاض واسترسل ، وتوخى الاستقصاء والتصفية ولم يدغ شيئاً . ودفعه إلى الاسترسال وأغراه به ، لا الحسد ولكن لطف الحس الذى يتناول أدق الأشياء وأخفها ، ومراح الخيال القوى الذى يجسد الصورة ويُشعر صاحبه اللذة والمتعة المستفادتين من استقصاء الجوانب وإتمام النواحي . وقوة الخيال تغرى أبداً بمثل هذا وتبعث عليه ، وقد يبدأ المرء غير معترم إطالة ، حتى إذا استولت عليه قوة ما يتخيل ، سحره ذلك وتملكته روح الفن ، فالتفجع على غير قصد ومضى ولم يكن فى حسباته أن يمضى ...

فليس ما به حسداً ولكنه قوة الخيال ودقة الشعور وبروز الاحساس بالنفس ، ومع ذلك هبه كان حسداً وحقداً ، أو ما شئت فسمه ، فماذا إذن ؟ أليست هذه طبيعة الناس ؟ ألسنا قد خلقنا الله كذلك ؟ فأى بأس فى أن نكون كما برئنا .

« وأين عن طبيعتنا نعدى ؟ » .

كما يقول ابن الرومى . ونرد المسألة إلى أصلها الأول ، فنقول إنه لم

يستطيع أن يتكيف على مقتضى الأحوال التي يعيش في ظلها كما استطاع ويستطيع أكثر الناس . وأكثرهم بلا مرء أوساط عاديون . ومرد هذا العجز إلى حالة الأعصاب ، ولا يخفى أن الدافع إلى التكيف هو الرغبة في سد حاجة عضوية أو اتقاء متعبة . ومعنى هذا بعبارة أخرى ، أن المرء يسعى إلى التكيف ليحس الارتياح ولينفى أو ينقص المتاعب . فإذا لم يستطيع ذلك ولم يقو عليه ولم ينل ما يناله من وسعة ذلك من الارتياح ، ولم يتق ما اتقاه غيره من الاحساسات المنقصة . ولا مفر له بعد ذلك من أن تنقل وطأة الحياة والناس عليه ، ومن هنا يأتي سخطه على الحياة ، ونقمته على المجتمع ، وتبرمه بتنظيمه وأحواله ، وقلة صبره على ما يسوء مما يحتمله الأكثرون أو لا يلتفتون إليه ، وسرعة تهيجه وغضبه على معاشريه والمحتمكين به والذين يلتقى بهم في طريقه . ومن هنا أيضاً تنشأ الأوهام وتصير عنده حقائق ثابتة لا سبيل إلى طردها أو التفتن إلى أنها ليست إلا مما يحدث في جوفه ويجرى في نفسه لا مما تحدثه إرادة خارجية . ومن هنا كذلك تتولد فكرة الاضطهاد المتهوم والاشفاق من العالم الخارجى ومن ساكنيه وتوقع الأذى من ناحيتهما . وهذا كله ظاهر ينطق به شعر ابن الرومى .

### (ب)

كان ابن الرومى فى صباه فتى غرائقاً ، كما يقولون ، وسيم الطلعة ، مقدود القوام قدّ السيف ، كما يقول :

أنا من خف واستدق فما يثقل أرضاً ولا يسد فضاء  
خفيف الروح أنيس المحضر ، مزهواً بملاحته مغروراً بشبابه ، مدفوعاً بحوارته وبقوة إحساسه إلى اغتنام فرصة الحياة ، فليس هذا البرد « لبر ابتذال » كما يقول ، وأخلفه ولم يصنه ولا أدخر منه شيئاً للكبر ، وفعل بصباه فرق ما يفعل الناس فى العادة . ولعل الذى أعجزه عن القصد وعدل به عن الاعتدال ، وقدة إحساسه مع الشباب من جهة ، ووسامته من جهة

أخرى ، ولم يكن لمن الرومي يخفى عليه أنه جميل ، وأن جماله يصيب  
النساء كما يصيبه حسنهن ، ولا كان يتحرج أن يذكر ذلك في شعره ويباهي  
به ، حتى بعد أن شينت ديباجته ، وتقوست قناته ، فتراه مثلاً يقول وهو  
يستمقى عهد الشبية ويتلهف عليها :

ولو شهد الشباب ، إذن لراحت      وإن بها-وعيشك-ضعف ما بى  
فياغوئاً هناك بقيد ثأرى      إذا ما الثأرات يد الطلاب !  
وقد أورده ذلك ما يورد ، فاغتال اللعب بأولى الدهر شيرته » بأخرى  
حقود ، والجرائم تحقد « وتضعض كيانه ودب الكلال فى عظامه وتوكأ  
على العصا :

ولدت أحاديث الرجال وأعرضت      سليمى وريا عن حديثى ومهددا  
وبدل إعجاب الغوانى تعجباً      فهسن روان ، يعتبرن ، وصدد

وفقد شبابه بسرعة ولم يفقد لباتاته وأوطاره فصار كما يقول :

شعر ميت لذى وطير حى      كنار الحريق ذات اللهب  
معه صبوۃ الفتى وعليه      صرفۃ الشيخ ، فهو فى تعذيب  
وناهيك بهذا من عذاب ! وقد يحب أن يتعزى فيقول :

لو يدوم الشباب مدة عمرى      لم تدم لى بشاشة الأوطار  
ولكنه لم يستطع عزاءً ، ورزح شيئاً فشيئاً على مر الليالى ، وانتابته  
الأسقام واصطلحت عليه العلل والأمراض ، وصار كما يقول :

أنا ذاك الذى سقته يد السقم      كزوساً من المـرار رواء  
ورأيت الحمام فى الصور الشنع      وكانت لولا القضاء قضاء  
ورماه الزمان فى شقة النفس      فأصمى فؤاده إصماء  
وابتلاه فى ذاك بالعرس والوحشة      حتى أمل منه البلاء  
وثكلت الشباب بعد رضاع      كان قبل الغذاء قدما غداء

ولم تسلم حتى عيناه فقد كانتا كثيرًا ما ترمدان ، وفي ذلك يقول لعبيد الله بن عبد الله :

شُغِلْتُ عَنْكَ بَعَوَارُ أَكَابِدِهِ      لَا بِالْمَلَاهِي وَلَا مَاءِ الْعَنَاقِيدِ  
قَاسَيْتَ بَعْدَكَ - لَا قَاسَيْتَ مِثْلَهُمَا      نَهَارَ شَكْوَى يَبَارَى لَيْلَ تَسْهِيدِ  
أَمْسَى وَأَصْبَحَ فِي ظُلْمَاءٍ مِنْ بَصْرَى      فَمَا نَهَارَى مِنْ لَيْلٍ بِمَحْدُودِ  
كَأَنَّنِي مِنْ كَلَا يَوْمَى وَلَيْلَتِهِ      فِي سِرْمَدٍ مِنْ ظِلَامِ اللَّيْلِ مُمْدُودِ  
إِذَا سَمِعْتَ بِذِكْرِ الشَّمْسِ أَسْفَنِي      فَضَعِدْتَ زَفَرَاتِي أَى تَصْعِيدِ  
لَا يَطْمَئِنُّ بَجَنِبِي لَيْنَ مُضْطَجَعِ      وَمَا فَرَّاشُ أَخِي شَكْوَى بِمَمْهُودِ  
أَرَعَى النُّجُومَ - وَأَنَّى لِي بَرَعِيهَا      وَطَرَفَ عَيْنِي فِي أَسْرِ وَتَقْيِيدِ ؟ !  
وَإِنْ مِنْ يَتَمَنَّى أَنْ يُوَاتِيَهُ      رَعَى النُّجُومَ لِمَجْهُودِ الْمَجَاهِدِ  
وَضَاقَتْ الْأَرْضُ بِي طَرًّا بِمَارْحَبِ      فَصَارَ حَظِّي مِنْهَا مِثْلَ مَلْحُودِ

يعنى بالملحود القبر ، وقد لازمته علته هذه شهرًا وتكررت ثم انتهت الأمر به إلى ضعف البصر كما يقول فى دالية له يندب فيها شبابه :

وبورك طرفى ، فالشخص حiale قرائن من أدنى مدى، وهى فرد وله فى قصيدة أخرى :

وأحدث نقصان القوى بين ناظرى

وسمعى ، وبين الشخص والصوت برزخا

وكنت إذا فوّقت للشخص لىحتى

طوت دونه سهبا من الأرض سريخا

فحالت صروف الدهر تنسخ جدتى

وما أملت من قبل إلا لتنسخا

وأخلق به أن يضعفه ويصيره إلى هذا المصير استهتاره فى صدر أيامه ، وإدماته القراءة والاطلاع ، فقد أحاط ابن الرومى بكل ما يحاط به من

العلوم والمعارف والآداب فى عصره ، كما يدل على ذلك ما فى شعره من الإشارات التى يحتاج المرء فى فهمها إلى العلم بتاريخ العرب والفرس جميعاً والوقوف على كل ما كان لهم فى كل باب . وقد ذكرنا لك أن أحد مؤرخى العرب قال عنه إن الشعر كان أقل أدواته ، ويقول ابن الرومى نفسه للقاسم بن عبيد الله :

|                            |                             |
|----------------------------|-----------------------------|
| أن أكن غير محسن كل ما تطلب | إنى لمحسن أجزاء             |
| فمتى ما أردت طالب فحصى     | كنت ممن يشارك الحكماء       |
| ومتى ما أردت قارض شعر      | كنت ممن يسجل الشعراء        |
| ومتى ما خطبت منى خطيباً    | جل خطبى ففاق بى الخطباء     |
| ومتى حاول الرسائل رسل      | بلغتنى بلاغتنى البلاء ، إلخ |

وليس بغريب بعد ذلك أن لا تسلم أعصابه ، وأن تضطرب ويختل توازنها . ومهما يكن من الأمر فإن من المحقق أنه لم يكن سليم الأعصاب ، وأن جهازه العصبى كله كان غير منتظم . يدل على ذلك موت أبنائه الثلاثة واحداً بعد واحد ، وفى غير السن التى يكون فيها الإهمال من أسباب الوفاة ، ومراثيه لهم ، وبخاصة دالته فى رثاء أوسطهم ، لا يفوقها شيء فى لغة العرب أو غيرها من اللغات التى اطلعنا على أديانها ، وقد كان إلى جانب ذلك أحرق طياشاً سريع الغضب ، وكان إحساسه الجنسى حاداً ليس فيه شيء من الاعتدال البتة ، وهنا لا يسعنا بكرهنا إلا أن نذكر أن معاصريه كانوا يستفزونهم بقولهم عنه إنه عين ، وكانت تثار نائرتة لذلك فيهجوهم أفحش الهجاء وأقذعه ، وينكر التهمة ، ويعنى بدفعها ، ولكنه مع ذلك قال وهو يتحرق على شيبته :

|                             |                       |
|-----------------------------|-----------------------|
| لهفَ نفسى على القناع الذى ع | وأعقت منه شر عقيب     |
| منع العين أن تقر ، وقرت     | عين واش بنا وعين رقيب |
| نفر الخلم ثم ثنى فأمسى      | خيّب العرس أيمما تخيب |

والبيت الأخير هو الشاهد . والاعتراف فيه صريح لا يحتاج إلى تعليق ،  
فكان ما قيل عنه حق ، أو هو إلى الحق أقرب وبه أشبه . ثم لا تنس أنه  
فى هجائه قلما يفوته أن ييسط لسانه بسطاً شنيعاً فى أعراض من يهجوهم  
من الرجال والنساء أحيائهم والأموات .

على أنه ليس أقطع فى الدلالة على اضطراب أعصابه من طيرته . وكان  
مفرطاً فيها ، وبلغ من غلوه أنه كان كلما أراد الخروج من البيت « يتعوذ »  
بعد أن يلبس ثيابه ثم يمضى إلى الباب وفى يده المفتاح ، ولكنه لا يديره  
فيه ، بل ينظر أولاً من ثقب هناك فى خشب الباب لأن له جاراً أحذب  
يتطير من رؤيته ويخشى أن يلقاه ، فإذا رآه من الثقب عاد أدراجه ، وخلع  
ثيابه ، وأقام فى بيته لا يبرحه ، ولعل حاجته إلى الخروج شديدة ، وكثيراً  
ما كان يصبر على الجوع والظمأ هو ومن معه من الأولاد والنساء ويغلق  
الأبواب عليهم ، ويؤثر ذلك على الخروج والتصرف بعد أن رأى أو سمع  
ما يتطير منه . وقد وصف جاره الأحذب أبدع وصف ، أو رسمه على  
الحقيقة ، فقال :

قصرت أخادعه وطال قذاله      فكأنه متربص أن يُصفعا  
وكأنما صُفعت قفاه مرة      وأحس ثانية لها فتجعما

وكان إخوانه يعرفون ذلك منه ويعابثونه ، فيبعثون إليه من يقرع بابه  
فإذا قيل له من ؟ قال « مرة بن حنظلة » فيتشاءم ويستعذ بالله ويقيم فى  
بيته لا يبرحه ، وكان على بن سليمان الأخفش أجراً الناس عليه بذلك .  
وبلغ من تطيره أنه كان يقلب الأسماء فيقول مثلاً « حسن مقلوبة على نحس .  
ويتشاءم إذا رأى نوى تمر فى الطريق ، ويقول إن النوى الفراق ، وإن  
هذا يشير بأن لا تمر ، وإذا أصابه هو أو سواه شيء ، عزاه إلى أمر من  
هذا القبيل ، وحدث مرة أن صاحباً له بعث إليه بسلام جميل يعرفه  
ابن الرومى ويطمئن إليه فجاء به فلما تخطى باب الصحن فى دار صديقه  
عشر فانقطع شمع نعله فدخل مذعوراً وعلل هذه العثرة بأن الغلام به عاهة

وهي قطع أنثيه . وأقام آخر مهرجاناً وكان من بين الجوارى في ذلك اليوم صبية حولاء وأخرى في عينها نكتة ، فتطير ابن الرومي . ثم إنه حدث بعد مدة أن سقطت ابنة الرجل من بعض السطوح فماتت ، وأن جفا القاسم بن عبيد الله ابن الرومي فرد هاتين المصيتين إلى الجاريتين ، وكتب بذلك إلى والد الفتاة يقول :

أبها المتحفي بحول وعور      أين كانت عنك الوجوه الحسان  
فتحك المهرجان بالحول والعر      ر أرتا ما أعقب المهرجان  
كان من ذاك فقدك ابنتك الحر      ة مصبوعة بها الأكفان  
وجفاني مؤمل لي خليل      لج منه الجفاء والمجران  
وأخذ في هذه القصيدة يثبت أن الطيرة معقولة ، ويدفع قول من قال  
إن النبي نهى عنها :

لا تصدق عن النبيين إلا      بحديث يلوح فيه البيان  
خير الله أن مشامة كا      نت لقوم ، وخبر القرآن  
أفزور الحديث قبل أم ما      قاله ذو الجلال ، والفرقان ؟

وهجا مرة كاتباً اسمه أبو طالب فحذر الناس من شؤمه :

أحذر أهل الأرض حدًا ابن طالب      فما زال مشحودًا على من يصاحب  
وقد جربت منه على آل مخلد      تجارب ليست مثلهن تجارب  
أزيرق مشثوم ، أحيمر قاشر ،      لأصحابه نحس على القوم ثاقب  
وهل أشبه المريخ إلا وفعله      لفعل شبيه السوء شبه مقارب  
أعوذ بعز الله من أن يضمني      وإياه في الأرض البسيطة جانب  
شبيهه قدار بل قدار شبيهه      وإن قيل كليم وإن قيل كاتب  
وهل يتمارى الناس في شؤم كاتب      لعينه لون السيف والسيف قاضب ؟  
ويُدعى أبوه طالبًا ، وكفاهم      به طيرة أن المنية طالب  
ألا فاهربوا من طالب وابن طالب      فمن طالب مثيلهما طار هارب !

وكان ينفي عن نفسه أنه نحس ويهجو من يزعمه كذلك كما قال في  
ابن موسى :

أُتأمر بالتقزز من كلامي      وذكرك يُصدى الذهبَ السبكاً؟  
زعمت بأننى نحس ، وإنسى      مجيبك - معلناً - لا أنقيكاً  
ويقول عن نفسه إنه ميمون مبارك ، كما فعل فى هزيرة طويلة وجه بها  
إلى القاسم بن عبيد الله الوزير :

كل شيء أراه منك بشير      صدق الله هذه البشراء  
وإذا ما مخابر الناس غابت      عنك فاستشهد الوجوه الوضاء  
إلى أن يقول مخاطباً القاسم :

أجمل بك أطراحي وقد قدَّ      مت فى رأيك الجميل رجاء  
ولى الطائر السعيد الذى كا      ن بريدًا بدولة زهراء  
ما تعرفت، مذ تعيفت ، طيرى      غير نعماء ظاهرت نعماء  
ثم أدنيتنى فزادك يمنى      من أمير مؤيد إدناء  
وتناولتنى ببر فبرتك      يد الله ثرة ييضاء  
وكذا كلما نويت لمولاك      مزيدًا أوتيته والهناء .. إلخ ..

ولقد طلب إليه فى هذه القصيدة أن يتخذ « عوذة » لمجلسه فقال :  
يا لقومى ! أثقل الأرض شخصى؟      أم شككت من جفاء خلقى امتلاء؟  
أنا من خف واستدق فما يثقل      أرضاً ولا يسد فضاء  
إن أكن عاطلاً لديك من الآ      لات - حاشاك أن تجور غباء !  
فلأكن « عوذة » لمجلسك المو      نق أردد عين الردى عمياء !  
ويقول فى بائية له إنه يخاف :

أن يقول الوشاة بى إن شئى      جر هذا الشخصوص وإلافك حوب

ولو وقف الأمر عند حد التطير لكان بعض الشيء ، ولكنه كان يكابد ما هو أدهى . ذلك أنه كان مصاباً بتوهم الاضطهاد واقعاً عليه من الناس ومن الطبيعة نفسها . فأمّا من الناس فلا نحتاج أن نورد من شعره شيئاً فقد عرف القراء أنه حافل بما ينم على ذلك ، وأمّا من الطبيعة فقد يكون مما له دلالة ، قوله فى بانيته التى مدح بها أحمد بن ثوبة :

وصبرى على الإقترار أيسرُ محملاً  
لقيت من البر التباريح بعد ما  
سقيت على رى به ألف مطرة  
شغفت لبغضيبها بحب المجادب  
ولم أسقها ، بل ساقها لمكيدتى  
تحمق دهر جدى كالملاعب  
إلى الله أشكو سخف دهرى فإنه  
يعابثنى مذ كنت غير مطايبي  
أبى أن يُغيث الأرض حتى إذا ارتمت  
يرحلى أتاها بالغيث السواكب  
سقى الأرض لأجل فأضحت مزلة  
تمابل صاحبها تمايل شارب  
لتعويق سبرى أو دحوض مطيتى  
واخصاب مزور عن المجد ناكب  
ولعل ذلك راجع إلى اقتداره على التشخيص والباس المعانى صور  
الاحياء ، ولكننا نعود فنسأل لماذا يعد نفسه مقصوداً بالذات ؟

(جـ)

الطفل ، إلى حد كبير ، صورة مصغرة من الجنس الإنسانى . يمر به ، باختصار ، ما مرّ بجنسه من الأطوار ، ويتقل شيئاً فشيئاً من الذاتية غير المدركة ، إلى الذاتية المدركة ، ثم إلى التفطن لما هو خارج عنها . أول ما يحسه هو ما يجرى فى جوفه ، كما تنم على ذلك حركاته التى يسهه أن يقوم بها ، وضحاته - وهى أيضاً حركات عضلية - وكما يدل على ذلك ما يديه من الشعور بالحالات العامة ، من مثل الجوع والظمأ وما إليهما . هذا هو الطور الأول ، وهو طور ليس فيه وعى . فلا المخ يهيمن على المراكز الدنيا ، ولا ما يتولاه الحس يمكن تربيته وتوليد فكرة منه ،

ولا للإرادة دخل فى الحركات . ثم يأتى طور آخر تقوى فيه المراكز العليا على الأيام ، فيعنى الطفل بما يأخذه حسه ويكون من ذلك فكرة إلى حد ما ، وتصدر عنه حركات يعنى بها غاية . وهذا الدور هو مولد الإرادة ، وبه يرتبط الشعور بالذاتية والتنبيه إلى أنه فرد . غير أنه حتى فى هذا الدور تظل وعيته غاصّة على الأكثر بحالات نفسه ، ويبقى هو أكثر اشتغالا بما يجرى فى جوفه منه بالعالم الخارجى . فهو مثال بارز للأناية إذ كان لا يكثرث إلا لما له اتصال مباشر بنفسه وحوائجه وميوله . ثم يترقى فينضج رأيه فى علاقته بغيره وبالطبيعة ، ويترن إحساسه بذلك ، وتتضاءل عنايته بما يجرى فى كيانه العضوى ، إلا إذا ألحت عليه ضرورة ، ويعظم التفاته إلى ما يتناوله حسه ، فتراجع ذاتيته إلى ما وراء ما عداها ، وتتملأ صورة العالم الخارجى أكثر جوانب الواعية . ويصبح الطفل رجلاً من الأوساط العاديين الذين هم السواد الأعظم من الناس الذين تتمثل فيهم أسمى درجات الذاتية باشتغالها على ما عداها ، أى بإدراك العالم وبقهر الأناية ، أى بالاتئفال إلى ما يسمونه «الأترويزم» وهو الاهتمام بالغير بدافع من العطف أو سواه مما يجرى مجراه ، لا رضاء لحاجة جسمية ملحة ، ولا إشباعاً لعضو من جوع وقتى ، كما هو الشأن فى الجوع وفى الغريزة التناسلية . ومن الواضح أنه لا سبيل إلى الحياة المدنية العادية بغير ذلك أى بغير الأترويزم . وكيف تكون الحياة الانسانية إذا كان الناس لا يستطيعون أن يحضروا لأنفسهم إحساسات سواهم وأن يمثلوها لخواطهم أيشعر بالعطف من لا يسهه أن يتصور آلام الناس ؟ أيكثرث للناس مخلوق لا يقوى على تخيل الأثر الذى يحدثه ما يعمل أو ما يغفل أن يعمل ؟ — هذا ولابد للمرء أن يدفع عن نفسه سوء فعل القوات الطبيعة ، وأن يستخدمها لخيره ولفائدته ، وذلك ما لا سبيل إليه ما لم يعرف هذه القوات معرفتها ، وما لم يستطع أن يتصور فعلها . وهذا كله يستوجب من المرء أن يكون أكثر التفاتاً إلى ما عداه . وذلك مظهر الرجل العادى فى الأغلب والأعم . عنايته بما يقع فى نفسه من الخارج ، أشد وأعظم استغراقاً له من عنايته

بما يأتي من ناحية نفسه ، وواعيته أغص بصور العالم الخارجى منها بنشاط كيانه وأعضائه ، وليس له من الذاتية أكثر من القدر اللازم للاحتفاظ بفرديته . وليس كذلك الرجل الشاذ الذى يُخلق على غير طراز الأوساط ، والذى يظل طولَ عمره أشبه بالطفل من حيث علاقة الذاتية بما عداها . ومن هنا تكون المبالغة فى تقدير العمل الشخصى والغلو فى أهميته . وما من شك مثلاً فى أن الأدب من لوازم الحياة الإنسانية ، ولكن تاريخ العالم لا يدور على محوره وحده ، وهب الأمر كذلك فهو على التحقيق ليس رهناً بشعر شاعر واحد معين . ولا ريب فى أن كل امرئ يعتز بعمله ويكبره ، ولكن الفرق بين الرجل العادى وبين الشاذ ، هو أن الأول لا يغالى بعمله ولا يعدو به قدره وأن الثانى يجاوز الحد المعقول ، ولا يستطيع أن يتصور أن واحداً من الناس قد يخالفه فى ذلك ولا يرى رأيه فيه ، فإن فعل ، فهو خصم وعدو .

وقد كان ابن الرومى لسوء حظهِ - أو لحسنه ولحسن حظنا على الأصح - واحداً من هؤلاء الشواذ . فنه الشعر . فالشعر عنده أحق ما فى الحياة بالعناية والاكبار ، وقائله أولى الناس بأن توفر له أسباب الحياة التى تتطلبها . فنه . وهو ( ابن الرومى ) بصفة خاصة أحق مخلوق أو شاعر بذلك . فمن حقه على الناس أن يرزقوه إذا لم يستخدموه :

|                                |                                      |
|--------------------------------|--------------------------------------|
| أأحييتى بالأمس ثم تميتى        | برفضى وإقصائى وحقى أن أدنى !         |
| ولو أننى أحييتُ ميتاً - عشقتُه | بحسن الذى آثرتُ فيه من الحسنى        |
| ألا يعيش المفضالُ ميتاً أعاشه  | وأجنائه من معروفه الحلوى ما أجنى ؟   |
| أذو آلىة ؟ فاستخدمونى لآلتى    | بقوتى - أولاً ، فارزقونى مع الزمنى ! |

وهى صرخة مؤلمة ! - ثم يجب بعد ذلك ، أى بعد أن يوفر له رزقه ولو من غير طريق الاكتساب ، أن يمكن من السماع لأن أذنه حساسة

واعية نحن إلى السماع الجميل ، ومن إرضاء حواسه الأخرى أيضًا لأنها  
قوية مُلحة في طلب الإرضاء :

نُ وُغنت غناءها غناء  
فأضحى أمواتهم أحياء  
معبداً والغريض والميلاء ؛  
مشبهات اسمها صيهاً ولأى<sup>(١)</sup>  
إذا ما تبارت إعطاء  
أصناف وشبه وتراءى  
وإن كان ذاك منها اعتداء  
وأجاب مكاء مكاء  
جس ميلاً إليك تحكى النساء  
لمشم يحكى ثباك ذكاء  
في ظل ليلة قمرأ  
يحث بالسفين الحداء  
ذات يوم عشية أو ضحأ  
إغداق مائها الغبراء . إلخ

أدنى شخصى إذا شدت لك بستا  
فاستارت من اللحد المغنين  
يا لإحضارها مع ابن سريج  
وتلتها « عجائب » فتغت  
فحكّت هذه وتلك يمينيك  
ذا ، ولا تنسى إذا نشر البستان  
وحككت الرياض في الحسن والطيب  
وتغنى القمري فيها أخاه  
وأبدت لك لحظها قصب النر  
فجمالاً لمنظر ، وثناء  
وأهو قري إذا شرعت على دجلة  
وأجاب الملاح في بطنها الملاح  
وإذكرنى إذا استشرت سحابا  
فتعالت فوارة تحمد الخضراء

ولماذا

قع مما يروى القلوب الظماء  
بشدو المجيدة الضوضاء  
لك ، أعلو بحقى الجلساء

حسن علمى إذ ذاك بالحسن المو  
وارتفاعى عن الجفافة المسوين  
موجب أن أكون أدنى جليس

(١) معبد وغريض مغنيان ، والميلاء وعجائب مغنيان معاصرتان لبستان .

وليس هذا ، على صحته ، بالسبب الموجب على القاسم أن يجعله أدنى جلسائه ! لأن القاسم قد يكون كهؤلاء الجفاة الذين لا يميزون بين الضوضاء والغناء الجيد ، وقد لا يحب أن يؤلم نفسه بحضور من هو أفطن منه وأدق حساً .

وقد يحتاج أن يتزوج فيخطب لنفسه فتاة ويعين يوم الزفاف فيطالب صديقاً له بأن يعينه على زفافها :

يا سمى الخليل إياك أدعو      دعوة يمت سمياً مجيا  
أمة من إماء فضلك أجمعت      على نقلها إلى قريبا

وما ذنب صاحبه إبراهيم هذا ؟ قال لأنى :

ما تزوجتها على غير تأمليك      فانظر أجائر أن أخيا ؟

نقول نعم جائز ! وقد كانت له أرض كما قلنا وكان عليه أن يؤدى عنها الخراج ، فكتب إلى وهب بن سليمان يستعفيه من ذلك :

غير أن ليس فى خراجي وحدى      ما بأعلاقه يسوغ الشراب  
لك فى مكثرى الرعية دونى      حلب كيف شئت بل أحلاب

ولكن غيره قد يستعفون مثله فماذا يكون العمل ؟

ومتى رام رائم كخصوصى      قلت ما كل دعوة تستجاب  
بل لقوم وسائل يستحقو      ن ، إذا ما دعوا بها ، أن يجابوا  
منهم معشر ومنهم أناس      فضلتهم بفضلها الألباب  
وأديب له ثناء بما يسدى      إليه وللثناء ثواب  
ولبعض الرجال فضل على بعض      بما تفلتهم الآداب  
ولقد جاء فى الرواية والآ      ثار أنا على العقول ثاب

وهكذا . فما ثم داع للاطالة فإنه هو القائل :

حق الأديب لازم لذى الكرم      فإن تناسى حقه ، فقد ظلم  
أما رآه لم يزل أعنى الخدم      بالأدب الشعرى طورًا والحكم  
مستملًا من عرب ومن عجم      منحرفًا عن كل كسب يُقنم ؟

كذلك لم يكن بينه وبين الناس ما ينبغي من التعاطف بل حتى ما يجعل الحياة ممكنة . وقد لا يكون هذا ذنبه إلا من ناحية أعصابه المضطربة، وذلك ما لا حيلة له فيه . أما الناس فواضح من شعره أنهم لم يكونوا يقدرّون حاجات نفسه، أو يدركون مبلغ إلحاحها عليه، وعذره فيها واضطراره إليها ، فلم يستقم الأمر بينه وبينهم . ومهما يكن من الأمر فهذا هو الواقع على كل حال . وما أكثر ما ترى فى شعره مثل قوله أو قريبًا منه :

حلقت بمن لو شاء سد مفارقى      بما لى فيه عن ذوى اللؤم مرغب  
لما آفتى شعرًا إليهم مبغض      ولكنّه منعٌ إليهم محب  
وأعجب منهم معشر ليس فيهم      بشعرى ولاشئ من الشعر معجب  
براذين ألهّاها قديمًا شعيرها      عن الشعر تستوفى القديم وتركب  
أو قوله :

أنا شاك إليك بعض ثقتى      فافهم اللحن فهو كالاعراب  
لى صديقٌ إذا رأى لى طعامًا      لم يكّد أن وجود لى بالشراب  
فإذا ما رآهم لى جميعًا      كفيانى لديه لى الثياب  
فمتى ما رأى الثلاثة عندى      فهى حسبي لديه من آرابى  
فى طبع ملائكى لديه      عازف صادف عن الاطراب  
أو حمارة فمقدار حظى      شبة عنده بلا أتعاب  
ليس ينفك شاهدًا لى بفهم      وبيان وحكمة وصواب  
ومتى كان فتح باب من الله      توقعت منه إغلاق باب

فما ظنك بغير الثقة ؟ وهذا يدعونا إلى الكلام على هجاء ابن الرومى :

(٤)

## السخر

(أ)

كلمة فى السخر أولاً ..

ما هو السخر ، إذا ذهبنا نعتبره من فنون الأدب ؟ إن هذه الوجهة هى - بالبداية - كل ما يعنينا . وهو بهذا الاعتبار ، العبارة - بما يناسب ذلك من الكلام - عما يثيره المضحك أو غير اللائق ، من الشعور بالتسلى أو التقزز ، على أن تكون الفكاهة عنصراً بارزاً والكلام مفرغاً فى قالب أدبى :

ولسنا نظن أننا أخطأنا فى هذا التعريف بكل ما ينبغى أن يحاط به ، أو أقمنا كل المعالم والحدود . ولكنه على هذا كاف فى رأينا للدلالة على المراد ، فهو حسبنا إلى مدى بعيد . فالشاعر حين يسخر ، يتناول بُعداً ما بين الأشياء والطبيعة ، ويركض فى حلقة يتقابل عند طرفيها الواقع من ناحية ومثل الكمال من ناحية أخرى . وقد يفعل ذلك جاداً أو متفكهاً مداعباً ، أى أنه قد يستوحى إرادته ومشاعره أو يستملى عقله . فإن كانت الأولى فهو حاج منتقم ، وإن كانت الثانية فهو ساخر يركب ما بدا له بالدعابة . وإلى هنا لا يكون هذا أو ذاك أدباً أو من الأدب فى شيء . وعسى من يخونه الصبر فيسأل : وكيف يكون هذا كذلك ؟ أتريد أن تخرج من الأدب كل ما قاله العرب مثلاً فى باب الهجاء والتهكم ؟ ألا يعد من الشعر ما نظمته فى هذه المعانى جرير والفرزدق أو دعبل ويشار وابن الرومى والمتنبى مثلاً ؟ إذا فماذا أبقيت ؟ نقول كلا يا سيدى القارئ ! هوّن على نفسك ! فما نقصد إلى شيء مما قام فى وهمك . وما أردنا سوى أن

نقول إن الشعر ليس أداة انتقام ولا هو عبثٌ يتلهى به الفارغون من قائلته وقرائه . ومن الصعب على المرء أن لا يفسد الصورة الشعرية حين يهجو جاذباً مستطيلاً ، وأن لا يفجع الشعر في حرية الحركة ، وهي من أغلى ما فيه ومن ألزم لوازمه . وهو حين يتفكه كثيراً ما يخطئه روح الشعر وتزداد ألحاضه عن اللانهاية .. فالأمر معضل كما ترى فكيف نشير ؟ نشير يا سيدى القارئ بهذا : بأن تخلع فى الحالة الأولى على كلامك خلعة من الجلال ، وبأن تضيفى عليه فى الحالة الثانية حلة من الجمال . وأحسبك ستقول :

هذا كلام له خبىء معناه ليست لنا عقول

فنعقول أى نعم والله يا صاحبى ! ولكن المسألة أبسط مما تظن فلا ترع ! وما عليك إلا أن تنفى عن ذاكرتك - إذا استطعت - ما فيها من « ضوضاء » المهجاء القارص والظعن المقذع ، وما كوّنته على أثر هذه الجلبة من الرأى الذى لعله عن لك بسوء الاتفاق . ثم هلمّ نتفاهم : وما أيسر ذلك إذا أخلّيت رأسك من هذه الضوضاء ، وتفضلت فتناولت رأيك ووضعتَه إلى جانبك لحظة . وفى وسعك أن تردّه إلى مكانه من دماغك إذا لم يعجبك كلامنا !

نحن متفقان - فيما أظن - على أن السخر على العموم مبعثه مقابلة الواقع باعتبار ما فيه من النقص ، بصورة الكمال باعتبارها أسمى الحالات التى ينبغى أن يكون عليها الواقع . كثيراً ما تكون صورة هذا الكمال غامضةً ملتثّة ، بل لعلها لا تعدو هذا الغموض أبداً ، ولا تخلص من ظلامه قط إلى نور الوضوح والبيان . وعلى أنه يكفى الاحساس العام بها ؛ ولما كان المرء قلما يتهياً له - أو لا يتهياً له قط - أن يتمثل صور الكمال واضحة مشرقة ، فأكثر ما يسعه هو أن يلفتنا إليها ويوقظ فى نفوسنا مثل إحساسه

العام بها . وهذا هو ما ينبغي أن يجعله وكده : أى أن ينيه فينا هذا الاحساس الذى لا يستطيع أن يصوره لنا على وجه الدقة . وإلى هنا نرى أن كلامنا أوضح من أن نحتاج معه إلى إفاضة فلنخط خطوة أخرى لها أيضاً ما بعدها .

ينفر المرء من شىء واقع أو يتقزز أو يشمئز منه أو ما شئت غير ذلك من هذه المترادفات التى لا أحسن أن أرصها رصاً . فتثور عليه نفسه . ولكن لماذا ؟ ألأن الشىء فى ذاته ، ومن حيث هو ، من شأنه أن يبعث فى النفس الإحساس بالتقزز ويشيرها عليه ! لا نحسب أحداً سيذهب إلى ذلك . وشبه بهذا أن يقول قائل إن كلمة معينة من الكلمات رديئة ، وإن حروفها التى تتألف منها ثقيلة بغیضة ، وإنها كيفما كانت ، وفى أى كلام وردت ، لا نكون إلا قبيحة كرهية الورد على الأذن ، وهو ما لا نظن عاقلاً يقول بمثله . فالشىء فى ذاته لا يبعث على سخط أو رضى ، ولا يكون غرضاً لدم أو حمد ، وإنما يكون هذا أو ذاك حين تقيسه إلى المثل العليا ، وتجربه على صورها ، وتقرنه بها .

وهنا محل التنبيه إلى خطأ كثيراً ما يؤدى إلى الخلط . ذلك أن المرء قد تلج به حاجة من حاجات جسمه أو نفسه . ويلقى شيئاً مما هو كائن ، عقبة فى سبيل إرضائها فيسخط ، ولكن لا على العراقيل التى تأخذ على رغبته مذهبها ، بل على الجماعة ، وربما تجاوزها إلى الجنس الإنسانى كله ، وإلى الحياة على الإطلاق ، لما يتعلق به وهمه من أن مصادر هذا الاحساس عامة ، ولما يعزوه إليه من البواعث الأدبية السامية . وهذا هو دأب الضعاف والمتخلفين . على أن غيرهم قد لا يسمون من هذا الخلط ، لأن القدرة على تحريك النفوس تخدعهم وتغرهم . ومهما يكن من الأمر فإن هناك فرقاً بين أن يؤثر الشاعر باهاجة العواطف وترك القلب تستغرقه

الاحساسات المؤلمة ، وبين أن يشير في النفس الاحساس بالاستقلال الأدبي إحساساً يبقى العقل حراً في اللجاجة فيه على الرغم من الاحتياج . ولا عبرة بسمو الموضوع أو ضعته ، بضخامته أو ضؤولته ، وإنما العبرة بالقاعدة التي يضع الشاعر عليها الأمر الواقع ، وبقدرته على تهئية النفوس لقبول ما يُلقى إليها وينفث فيها ، وبالمنزلة التي يشرف منها على غرضه . وما دامت هذه سامية رفيعة فلا اعتداد بعد ذلك بالموضوع . وبعبارة أخرى يكفي أن يكون لنظرة الشاعر حظاً كبير من الجلال والسمو . ومن العسير التمثيل لذلك من الشعر العربي ، ولكننا مع ذلك نغيل القارئ على جيمية ابن الرومي التي قالها لما قُتل يحيى بن عمر بن حسين بن يزيد بن علي ، ومطلعها :

أمامك فانظر : أى نهجيك تنهج طريقان شتى ، مستقيم وأعوج  
وفيها يصف طغيان العباسيين وضلالهم في الفتك بالعلويين واستهتاكهم  
وضعفهم إلى حد استباح لنفسه معه أن يقول « لرجالهم »  
فلا تجلسوا وسط المجالس « حُسرا »

ولا تركبوا إلا ركائب « تحدج » ١  
فإنه في هذه القصيدة يُشرف على ضعةٍ من مرقب عال يرفع إليه القارئ بقوة روحه وسمو نظرتة ، وهو يشعر بمطلع القصيدة أن قتل أبي الحسين هذا قد أثار مسألة تقتضى الفصل ، ويرسم لك طريقى الضلال والواجب ، ويهيج إحساسك الأدبي بالتمرد على الانتكاس الخلقى الذى أنطقه بهذه القصيدة . ولولا أن المقام يضيق عن ذلك لأوردنا القصيدة كلها على طولها ولتناولناها بيتاً بيتاً .

وغير منكور أن الموضوع الجدى يسمو بنفسه ويساعد الشاعر الذى يتناوله . وليس الحال كذلك حين يعالج الشاعر الفكاهة . وأنت حين تجد

قد لا يشق عليك أن تحلق ، ولكنك حين تجنح إلى الفكاهة لا يعود من السهل أن تحافظ على الاستواء الواجب ، وأن تتقى الهبوط ، وتجنب الالهاجة ، وتكبح عواطفك ، وترخي العنان لعقلك وأن تشيع الجمال في موضوعك. لتسد نقصه وتملاً فراغه وتعوض تفهه ، ومن هنا قالوا إن غاية الفكاهة هي أقصى ما هو مقدور للإنسان . يعنون بذلك التحرر من تأثير العواطف العنيفة ، والقدرة على التأمل في سكون واطمئنان ، والنظر إلى ما يقع ، لا إلى القدر أو الحظ أو الاتفاق ، ومنح الحماقات والسخافات والمتناقضات ابتسامة رضية لا عبرة متحدرة ، وكبح جماح الغضب عند شهود لؤم الإنسان ومعاناته . ولعل خير من يذكر على سبيل التمثيل في هذا الباب هو « هينه » الألماني . أنقول الألماني ؟ كلا والله ! فما تستأثر بهينه أمة ولا زمان ولا مكان ! ولقد طلق ألمانيا ولم يصر فرنسياً ، ونبد اليهودية ولكنه لم يصبح مسيحياً ، وزعمه « تيك » في قصة رمزية شيطانياً قزماً مقتلباً مسيحياً ! ولكن أغانيه أحلى وأعذب ، واستيلاءه على ينانيع الضحك والبكاء أعظم مما شاء « تيك » أن يعترف .

ولا ينبغي للقارئ أن يتوهم مما أسلفنا الكلام عليه أن العبث جائز في الشعر لأن الشاعر يتناول المضحكات أحياناً ويمزج ويسخر ويركب الأشياء والناس بالهزل ، فإن هزله أبداً مبطنٌ بالجد ، وهو لا يقصد إلى الهزل في ذاته حين يريك الهزل ويصوره لك ، ولقد كان « لوسيان » و « أرمستوفانيز » يتعقبان سقراط بالنكات القاسية ولم يكن غرضهما أن يمزحا فحسب ، بل كانا يريدان أن ينتقما للحقيقة من السفسطة في رأيهما ، وأن يبرزوا إلى المكان الأول ما يلقي به الناس وراء ظهورهم من المثل العليا . ثم ما أجمل وأبهر الصور الهزلية التي رسمها قلم « سرفانتس » في قصة دون كيشوت ! وفولتير ؟ ذلك الذي لم يشهد العالم ساخراً مثله ؟

ذلك الذى كان سخره عاملاً كبيراً فى إحداث انقلاب ضخم لا يزال أثره محسوساً إلى هذه الساعة ! من الذى يفوق هذا الأستاذ ويذه ؟ من الذى يشبهه فى أسلوبه ؟ إن الحكم على فولتير حكماً فيئاً بحتاً يستدعى قبل كل شيء تجريدَه - إذا أمكن ذلك - من صفته القومية الحادة ، إذ يغير ذلك لا يستقيم الحكم عليه ولا يتأتى إنصافه وإنصاف الأدب معه ، وما من شك فى أن صدق سريره وبساطة طبيعته تلمحان هنا وهناك فى خارجياته ، وتحركان فى نفس القارئ العواطف الشعرية حين يتوخى البساطة فى تمثيل الطبيعة وتصويرها ، كما فعل فى « الأنجنى » أو حين يغيبها ليقص لها كما فعل فى « الكانديد » وغيرها . وهو فيما عدا ذلك يسلينا ويسرنا بملحة الطريفة ولكن ... نعم ولكن .. لا يصل إلى قلوبنا . وهذا قول قد يسهط الكثيرين من المعجبين به مثلنا ، والمغالين بقدره غيرنا . غير أنه قد يُسمح لنا أن نهجم قليلاً ! ومن الذى لا يتهجم ؟ من الذى يلزم حده أبداً فلا يتقدم عنه ولا يتأخر ؟ أين فى الناس من لا يتناول به الغرور ؟ وإن لنا لحظاً من الغرور قسمه الله لنا فلنقتحم إذا !! ولنقل إننا لا نلمح المقدار الكافى من الجد وراء تهكمه فى كثير من المواطن . ولن يفوتك أبداً أن تلتقى بذكائه وبراعته وحذقه ، ولكنه يعيبك أن تهتدى إلى إحساسه ، وأن تطلع على شعوره وعواطفه ، وأن تلمس قلبه . وهو دائم الحركة ، لا يفر ولا يكل ، غير أنه ليس هناك شيء ثابت وراء هذه الحركة المتواصلة ، أو نجم قطبى يصمد إليه ويتجه نحوه ، وقد أسبغ على كتاباته مئات من الكسى ، وصيها فى أشكال لا يأخذها حصر ، ولم يوفق إلى شكل واحد يضع عليه طابع قلبه ويسمه بميسم نفسه . فهو غنى الذكاء فقير القلب ، خصب المادة سخي المظهر ، ولكنه كان يمشى فى هذه الدنيا ، ويخرج فيها من درب إلى درب ، ويعرج يميناً وشمالاً ، وينثر براعته فى كل مكان ، ويسح بملحه وطرائفه سحاً ، وفى جوفه صحراء لا تؤنس وحشتها واحة واحدة !

## (ب)

من الصعب على الناقد الذى تأخر به الزمن مثلنا أن يُجرى أحكاماً ما يأخذ به من الآراء فى الأدب عامة والشعر خاصة ، على قوم طوتهم الأيام بخيرهم وشرهم ، وتغيرت الدنيا بعدهم ، فلو أنشروا لأنكروها وما عرفوها . لأن الناقد لا يأمن ، إذا هو فعل ذلك ، أن لا يظلم أولئك الأقوام حتى حين يريد إنصافهم وتبين أقدارهم . ومن أجل ذلك يخيل لنا بعد الذى قلناه عن السخر انا نوشك أن نظلم ابن الرومى ، وأن نحمله جريمة أحوال لم تكن مما جنى ، وظروف لا يد له فيها ولا حكم عليها . أو على الأقل هذا ما نرجح أن سيعتقده عامة القراء من عارفى هذا الشاعر أو السامعين به . ولكننا مع ذلك سننصفه من حيث يبدو أننا خفنا عليه وغمطناه .

لم يكن الشعر على عهد ابن الرومى فناً يُزاول لذاته ، أى للترفيه عن النفس وإدخال السرور عليها من طريق الجمال . ومعلوم أن الباعث الأول على الشعر هو حدة إحساس المرء ودقة شعوره ، وذلك لأن كل مؤثر قوى يثير فى المرء حركات تتعلق بها المدارك فى صورة عاطفة أو انفعال نفسى لا يزال يغى مخرجاً ويلتصص متنفساً حتى يصيبه فى حركة عضلية أو نحو ذلك ، فإذا كان المرء من أوساط الناس العاديين كان ذلك حسيه للترجمة عن عواطفه وانفعالاته . وصار قصاره أن يبكى إذا حزن ، وأن يضحك إذا فرح ، وأن يثور ويتوعد إذا غضب ، حتى تفنى العاطفة نفسها ثم يشوب إلى نفسه . ولكن دقيق الشعور لا يكفيه هذا المتنفس لأنه أحس من غيره بما تطلع عليه نفسه من الظواهر ، وأعمق مع دقة الحس شعوراً . وليس يخفى أن دقة الاحساس وعمق الشعور يطيلان أجل العاطفة ، ويمدان فى عمرها ، ويفسحان فى مدتها وبقيائها ، فإذا استولت عليه عاطفة لم تزل تجيش وتضطرم حتى تفر وتنظم ، ثم تتحول فكرة قاهرة

تظل تجاذبه وتدافعه حتى ينفس عنها عمل يناسبها - هذا هو الفن لذاته فحسب . ولو أنك أردت أن تجد لهذا ضرباً في عصرنا يقرب إليك المسألة ويصورها - على قدر الامكان - لكان بك أن تبغيه بين جدران المدارس . ولقد قدمنا لك في مقال سابق أن خصائص الآباء تظهر في الطفل ، وإنه يعيد في شخصه تاريخ التطور النوعي كله . فذهب إلى المدرسة إذن فماذا تجد ؟ تجد هناك في ذلك الركن من « الفصل » - كما يسمون مكان الاجتماع لتلقى الدروس - تلميذاً مكباً على غلاف الكتاب ، وفي يده قلم يرسم به خطوطاً قليلة ماذجة يطالعك منها شيء كالوجه . وأظهر ما فيها شاربين ضخمان طويلان مقتولان لا نسبة بينهما وبين بقية الصورة ، إذا جاز أن تسمى هذا التخطيط صورة . فماذا تظنه يعنى ؟ ما هو الغرض الذى صار أمثل فى خاطره وأحضر فى ذهنه حتى فعل ذلك ؟ لا ندرى ! ولعله هو أيضاً لا يدري على وجه الدقة . غير أن الأرجح فى الرأى والأقرب إلى الاحتمال أن يكون قد قصد أن يرمز إلى الرجولة التى يتطلع إليها ويحلم بها ، فزاد فى الشاربين وبالع فى فيهما على نسبة عكسية لتجرده منهما ، إذ هو لا يزال أمرّد لم يطرّله شارب ولا نبت فى عذاربه شعر . والشوارب أدل على الفتوة ، وأدنى إلى معانى القوة من اللحية . وتلميذنا إنما يريد أن يرمز إلى سن القوة والفحولة التى تأنس إلى الشوارب ولا تطيق اللحية التى لا يطمئن إليها المرء إلا مع فتور الحيوية .

وثم فى مكان آخر من « الفصل » تلميذ ثان يحفر على غطاء « درجه » يبدأ بمسكة عصا ضخمة ، فماذا ترى جرى بياله حين حفر خطوط هذه وتلك بمبراته ؟ لعل معلمه أذاقه طعم العصا فخامره الاحساس بها ، ولم تزل تدور فى نفسه رهبة هذا السلطان الذى يدل عليه وقع العصا ، فأجرى مبراته على الخشب بهذه الخطوط التى تمثل له المظهر المؤلم البارز لهذا السلطان . وهناك فى مكان ثالث صبي آخر يدنو منه المعلم فتتحرك يده فى خفة وسرعة لتخفى فى جيبه ورقة ، ويلمحه المعلم فينتزعها منه فإذا

فيها صورة أنف كبير كخرطوم الفيل ؟ فماذا يا ترى في هذا أيضاً ؟ ماذا يريد فتانا بهذا الأنف الذي كأنما عناه ابن الرومي بقوله :

حملت أنفًا يراه الناس كلهم      من رأس ميل عياناً - لا بمقياس !  
لوشئت كسباً به ، صادفت مكسباً      أو انتصاراً مضى كالسيف والفاصر

لعل هذا الأنف رمز لمعلم يتضحك به التلاميذ ، ولا يقوى هو على حكمهم لضعف فيه أو قلة حزم أو لأن شكل أنفه على وجهه أغرى للتلاميذ ، بالضحك من أن تجدى معهم شدة أو حيلة ! وثم ، في مكان آخر من « الفصل » أيضاً ، تلميذ ناهز الثالثة أو الرابعة عشرة يتناول المدرس كشكوله - كراسة الأعمال اليومية - فإذا هو قد ملأه بما يشبه أن يكون صور أجسام عارية : في صفحة صورة فتاة أظهر ما فيها شعرها المنسدل على كتفين يبرز من تحتها ثديان ناهدان ، وفي صفحة أخرى رسم أبرز ما فيه ضخامة الردفين واتسجام الساقين تحتها ، وفي صفحة ثالثة من كشكول تلميذنا رسم قدمين صغيرتين في حذاءين جميلين . وهكذا .. فإلى أى شيء يرمز هذا الصبي الجريء ؟ ماذا يعنى بهذه الرسوم وبالاشتغال بها عن الدروس ؟ لعله هو نفسه لا يفهم السر ولا يستطيع أن يشرح لك الدافع . ولكن المدرس ، إذا كان لييباً فطناً ، يدرك أن هذا التلميذ أكبر من زملائه قليلاً ، وأنه لا يبعد أن يكون قد بدأ يبلغ مبالغ الرجال ، وأنه يعبر بما يخطط عن إحساسه الجنسي الغامض الذي أخذ يدب في جسمه ويتمشى في نفسه ويلفته كرهاً إلى المرأة ومواضع الملاحظة فيها وبواعث الافتتان بها ودواعي الرغبة فيها ..

فلماذا يفعل التلاميذ ذلك ؟ نظن أنه لا خلاف في أنهم إنما يرمزون بما يخطون - إذ كان لا يسعنا أن نقول بما « يصورون » - لكل ما له في نفوسهم وقع وأثر . ولا يفعلون ذلك طلباً للثناء ، أو التماساً لحسن

الأحدوثة وخلود الذكر ، لأن دأبهم أن يخفوا هذا الذى يصنعونه ، ولا يدعون عيناً أجنبية تطلع عليه . وكل ما فى الأمر أنهم دلوا بما خططوا على ما له تأثير فى نفوسهم أو ما يشغل خواطرهم . فكانوا بذلك مثلاً مصغراً لمزاولة الفن لذاته .

وهناك طور آخر يتلو هذا ويكون الشاعر فيه قوام النظام الاجتماعى ، ونصير الدين أو الملك أو الرئيس أو الوطن أو لسان العصبية . وهو طور خلا به فى الواقع عصر القبائل عند العرب ، أيام كان الشاعر عضد القبيلة ونصيرها وفارسها وحاجبها وجلادها والداعى إلى خوفها وخشية بأسها ، والمشيد بذكرها والمدون لمفاخرها وأيامها ، أو بعبارة أخرى أيام كان العرب « لا يهشون إلا بمولود يولد وفرس تنتج وشاعر ينبغ » : بالمولود ليشب منه فارس يدور عن القبيلة ، ويحمى حقيقتها ، ويدفع عن بيضتها ، وينتاج الفرس ليركب فى الحرب ، وبالشاعر ليذيع محامد القبيلة ، ويهجو عداتها ، ويدون تاريخها ويسجل أيامها . ولم يكن الأمر كذلك على عهد ابن الرومى . نعم كان الشاعر لا يجد سوقاً تنفق فيها بضاعته إلا بين الملوك الحكام والأمراء والأشراف والموسرين ، إذ كان هؤلاء وحدهم القادرين على تنويله وصلته ، والإحسان إليه جزاء إحسانه إليهم وإلى فنه . وما كان هؤلاء ليلقوا بأموالهم من النوافذ ، فإذا وصلوه وأجلدوا عليه فإنما يفعلون ذلك ليخلدوهم فى شعره ، ولينتقم لهم من خصومهم ومنافسيهم وحسادهم . ولكن حالات الاجتماع كانت قد تغيرت قليلاً ، وتبدلت مراتب الناس وعلاقاتهم ومساعيهم غير ما كانت . والشعر كغيره ظاهرة اجتماعية ، فكيف ينجو من هذا التطور الذى طرأ على ظروف الاجتماع ؟ كان قضاء الكلام ويفاصله ، الشيوخ والرؤساء أو الملوك والوزراء والأمراء ، فظل هؤلاء ، ولكن ظهر إلى جانبهم العلماء والأدباء والرواة والنقاد ، وبدأ

الجمهور يبرز بعد الخفاء ، ولم يكن ينقص الشعر إلا أن تظهر المطابع ووسائل النشر التي جدت بعد ذلك ، وفي غير ذلك الزمن ، وفي أم أخرى ، ليستقل هذا الفن عن الملوك والأمراء والرؤساء ، وتداول دولة تحكمهم في الشعر وأغراضه ومناحيه ، وليتحرر الشعراء ويخلو لهم الجور ، ولتصبح الصلة بينهم وبين الجمهور مباشرة لا يعترضها شيء كما هي الآن مثلاً . وهو ما لم يشأه الله للشعر القديم .

إذن فقد كان ابن الرومي في طور انتقال ؟ نعم . وبذلك يشهد شعره . وليس في عزمنا أن تنقل هنا كل ما يدل على ذلك وسنجزئ بأمثلة قليلة . منها قصيدته الرائعة لما اقتحم الزنج البصرة وأعملوا في أهلها السيف ، وفي مساكنها ومساجدها النار ، فقال ميمته الفريدة في لغة العرب ، واستنفر فيها « الناس » - الناس أى الجمهور لا الخليفة ولا وزراءه ولا الأمراء .. وجعل يستفز نخوتهم فيها بوصف البصرة وعزها وفرضتها ( مينائها ) ثم بالأهوال التي حلت بها من غارة الزنوج ، والفظائع التي اجترحوها ، والحرمان التي استباحوها ، ثم بتصوير الخراب الذي حل بها ، والهوان الذي أصابها ؛ ثم بتصوير الموقف في الآخرة حين يلتقي الضحايا والقاعدون عن نجدتهم « عند حاكم الحكام » وتأنيه سبحانه لهم على خذلانهم إخوانهم ؛ ثم باهبتة « بالناس » أيضاً أن يمثلوا لأنفسهم النبي ﷺ ولومه أمته ؛ ثم استنفرهم بعد كل هذه المثيرات والحوافز إلى إدراك الثأر وإنقاذ السبي . وهى قصيدة فى الطبقة الأولى من الشعر ، لو غيرت ما فيها من الأسماء والمحليات لخيّل إليك أنها ما قال بيرون فى سبيل استقلال اليونان أو توماس هاردى فى إبان الحرب العظمى . وإنه ليؤسفنا أنها أطول من أن تنقل ، وأنها لا تحتمل الاختيار ولا تقبل الاختصار . فليرجع إليها القراء فى الديوان ليروا كيف عدل بالخطاب عن مياقه المألوف

فى ذلك العصر ، ولم يعبأ لا بالملوك ولا الأمراء ، ولم يفرض أنهم هم وحدهم المطالبون بالدفاع والتجدة ، بل اتجه إلى جمهور الناس بصفته فردًا يقدر ما عليه وما على الأفراد مثله من واجب قومى دينى لا يخليه هو أو سواه منه شيء . وإنه لعجيب أن تخلو القصيدة من كل ذكر أو إشارة ، صريحة أو خفية ، للحكام . وليس يسع القارئ إلا أن يذكر بها ما كان يستفز به الكتابُ والشعراء والجماهير فى أمهم فى إبان الحرب العظمى الأخيرة .

ومن الأمثلة أيضًا أسلوبه الروائى الذى يطالعك من أكثر قصائده ، وعدم اقتصاره فى الوصف على الظواهر المحسوسة ، ومحاولة الانقضاء إلى البواطن وتصويرها ، وتبعه لحالات نفسه ولما يتقلب عليه ويمر به ، حتى غلب ذلك على شعره على الرغم من الأغراض الأخرى التى كان ينظم فيها الشعر من مثل المدح والهجاء والعتاب والاستعطاف وغير ذلك .

وليس يخفى علينا أن هذه من خصائصه هو ، ومميزاته التى انفرد بها ، ولكن من الذى يستطيع أن ينكر أن ما تبكره الشخصيات الممتازة يكون من عوامل التطور التى لا يمكن إغفالها ؟

وبعد ، فإذا كان فى أهاجى ابن الرومى كلام لا يعد من الشعر الصحيح بمعناه الإسمى ، فذلك على الأكثر ذنب عصره الذى كان يقبل ذلك ويتسع له ويُغرى به فى الواقع ، كما هو الشأن فى أفحاشه وعمره التى لا تطاق فى عصرنا الحاضر مثلاً . ونقول على الأكثر ، لأن ابن الرومى كان حاد المزاج سريع الغضب متمرد الطبع . فعصره ، من ناحية ، كان يُبيح له أن يُفحش وأن يأتى بالشناعات ، ويخرج بالشعر عن سبيله ، ويعدل به عن غايته ، ويتخذ فى بعض الأحيان أداة انتقام شخصى فظيع . ولكنه لا يعيبك ، حتى فى أفحاشه ، أن تلمح باعثًا خفياً سامياً يُخرجه عن طوره . فقد كان الرجل على كثرة أضاحيكه جادًا فى حياته وفى النظر

إليها . ولم يكن لهواه وعيشه إلا لفرط إحساسه بمرارة الجد في هذه الحياة ، ويشعرك بذلك قوله ، وهو حسبنا شاهداً مغنياً عن كثير أمثاله :

كيف العزاء وما في العيش مغتبط      ولا اغتباط لأقوام يموتونا  
متى نعش ، فيبلى الأحياء يدركننا      وإن نمت ، فبلى الأموات يقفونا  
لا بد من ميتة للمرء أو هرم      يظل منه جليدُ القوم موهونا  
والبيض والجون لانهوى فراقهما      ولا نزال نذم البيض والجونا  
وكل لهو لهاه الناس مشغلةً      عن ذكر ما هم من الأحداث لاقونا

وهو على كثرة ما في شعره من الفحش ، صحيح الإدراك من حيث الآداب والأخلاق . ومن شاء أن يقدر مبلغ ما رزق ابن الرومي من صحة الإدراك الأخلاقي فما عليه إلا أن يدع ما يراه في كلامه من التتزي إلى المقابح وأن يبحث عن البواعث التي دفعته ، والأسباب التي أغرت ، فإنه لا يلبث أن يتوسم من معاريف كلامه ، ويستشف من وراء لفظه ، صحة مبادئه وعظم نصيبه من سمو النفس وجلالة الروح .

أما أهاجيه الفكاهية فمن أبدع ما له . وهو في أكثرها مصور كعادته « لا تنقصه إلا الريشة واللوحه . بل لا تنقصه هاتان لأنه استعاض من الريشة بالقلم ، ومن اللوحه بالقرطاس ، فاكفى بهما وأثبت في النظم البديع ما لا تثبته الألوان والأشكال » كما يقول صديقنا الأستاذ العقاد . فمن ذلك قوله في بعضهم :

ويح ابن يوسف! ليت الوبح عاجله      فما يدانيه في بلواه أيوب  
طول وعرض بلا عقل ولا أدب      فليس يحسن إلا وهو مصلوب !

ولو غيره من الضعاف لعدل عن « المصلوب » إلى ما هو دون ذلك .

ومنه وصفه للأحذب ، وقد تقدم ، وقوله فى أبى حفص الوراق وكان قصيراً :

وقصير تراه فوق يفاح لم تدع قفذه يدُ الدهر حتى  
وجلت رأسه - نعمًا - فأضحى يا أبا حفص الذى فطن الدهر  
ظرف الدهر فى اتخاذك صفعا ظفرا  
فتراه كأنه فى غيابه قمعت فيه طوله وشباهه  
بارز الصرح ما يوارى صوابه ليدان رأسه فاستطابه  
نأ وما خلته ظريف الدعابه

وقوله فى بخیل :

غدونا إلى ميمون نطلب حاجة وقال : اعذرونى إن بخلى جبلة  
فأوسعنا منعاً جزيلاً بلا مظل وإن يدى مخلوقة «خلقة القفل»

إلى كثير من وصفه للأقفاء واللىحى والعنانين والمواقف المضحكة كقوله :

إن أبا حفص وعشونه قد أغريا بى يهجوانى معا  
أقسمت ما استنجد عشونه إن كان كفواً لى فى زعمه  
كلاهما أصبح لى ناصبا وحدى ، وكان الأكثر الغالبيا  
حتى غدا لى خائفاً هائبيا فليعتزل لحيته جانبيا !

وشبه بهذا الموقف المضحك قوله فى متفلسف دعى يتسقرط ويزعم نفسه فارساً كميّاً :

أطلق الجرذان بالليل وصح : هل من مبارز ؟ !

وقوله فى بخیل أو من يزعمه ابن الرومى بخیلاً :

يقتر عيسى على نفسه فلو يستطيع لتقتيره  
وليس يباق ولا خالد تنفس من منخر واحد !!

وليلاحظ القارئ أنه لا يخلط بين مجال المصور ومجال الشاعر ، ولا يحاول أن يجعل قلمه ريشةً ، فإن ذلك لا خير فيه ولا ثمرة له ، ولكن يجيئ لك بما هو حري أن يعينك على تصور ما يريد . وآية ذلك أنه حين أراد أن يصف قصر أبي حفص وضعه على يفاع أو مرتفع ليساعدك على تقدير النسبة ، وذكر لك أن « صرح » رأسه مجلو ، وأنه من الصلع بحيث لا يوارى بيض قملة ، لأنه لا شعر هناك ، وأن صفع الدهر له قمع طوله ! وتأمل كذلك تصويره معنى البخل بقوله إن اليد مخلوقة خلقة القفل ! ولعمري ماذا يسع المصور بريشته في مثل هذا ؟ إن البخل ليس مما ينطق به الوجه ، ورسم اليد مطبقة لا يدل عليه ولا يفيد الناظر شيئاً . فهو كما ترى مصور ، ولكن في حدود فنه وفي الدائرة التي تعينها قدرة الألفاظ .

(٥)

فلسفته

(أ)

هل لابن الرومي فلسفة تستخلص من شعره الذي كان يهضب به ويسح ؟ أو إن شئت ، وكنت مثلنا لا تقوى أضرارك على مضغ الجلاميد التي يطلقون عليها اسم الفلسفة أحياناً ، فقل هل له مذهب في هذه الحياة ؟ وكيف كان إدراكه لسننها ، وإحساسه بصروفها ، ومجاوبته لواقعها ، وملابسته لحالاتها ؟ وهل أركض عقله في ميدانها وأطلق خياله في سمائها ؟ وفي الجواب على ذلك ، الحكم على ابن الرومي . فإذا كان الجواب نعم ، وكان الرجل عندك صاحب نظرة خاصة إلى الحياة ، فقد سلكته مع الفحول . وإن كان لا ، وأحج أن لا يكون كذلك ، فقد هبطت به إلى منزلة الظرفاء الذين يلتمسهم المرء أحياناً وينضو عند عتبهم الجد والتفكير ، ويحاضرهم محاضرة المترفة المتلهي ، كما يداعب الشيخ

الوقور فتاه الحدث ، ويمسح له جبينه ، ويلمس كفه صباحة بحياه الجديد  
ونضارة متوسمة القشيب ، ويجرى معه لسانه بالكلام الخفيف ، ويضاغيه  
ويلائغه ويمتنع سمعه وعينه بسداجته ويجعله الخلو وغفلته اللذيذة !

ونعتذر إلى ابن الرومي من هذا السؤال - لو أنه يعي اعتذارنا أو يحفل  
ما نقول فيه ! - وأكبر الظن أنه لو كان حيًا ، ورآنا نسأل ألهُ مذهب  
أو رأى فى الحياة ، لأخبت إلينا وأوضعت أهاجيه النارية :

من كل سائرة بذلك يرتضى بركابها الأغوار والأنجاد  
فالحمد لله الذى أماته قبل أن يُحيينا ! فما نظنه كان يشفع لنا عنده أنا  
نُشيد بذكره وننشر مطلوبه وننصف عبقرته .

كلّا ! لا مرأى فى أن ابن الرومي من كبار الفحول ، وأنه كان يحس  
الحياة بكل جارحة فيه ، بل يقبل على الحياة وينشد الإحساس بها ويعرّى  
أعصابه لها ، ليتحلى من الشعور بها يلبسها بروحه ، ويدبر عينه ويقلبها  
تارة فى نفسه وتارة أخرى فيما حوله ، ولا يمل التأمل ، ولا يفتر عن  
التدبر ، ولا يكف عن المقايسة والمقابلة ، وعن إرسال النظر رائدًا واجالة  
الفكر حاصدًا . وبماذا خرج ؟ قد لا يرضيك ما انتهى إليه واستقر عليه .  
ولكن ما قيمة ذلك ؟ إن الشاعر ليس مطالبًا بأن يقدم لك مذهبًا فلسفيًا  
جامعًا مفصل الحدود واضح المعالم ، ولا بأن يحسر لك ظلال الإبهام عن  
مشكلات الحياة ، ويخرج حجب الظلام عن أسرار الوجود . بل حسبنا منه  
أن تكون له فكرة عن الحياة بخيرها وشرها ، وسعودها ونحوسها ، وقوانينها  
ومظاهرها ، وأن يفضى إليك بوقعها الذى لا مهرب منه ولا متحول عنه ،  
والحياة ، بعد ، لها أكثر من وجه واحد ومظهر واحد وليست صفحتها  
الغامضة السوداء التى يفتحها لك الشاعر بأقل فتنة أو أضال نصيبًا من  
الصواب ، من صفحتها الواضحة البيضاء التى ينشرها لك الفلاسفة

والعلماء . فإذا كان لا يروك ما خطه ابن الرومي في صفحته ، واطلعت منه على جانب من تاريخ الإنسانية ، فإن في الحياة كثيراً مما لا يروق ولا يعجب ، وهو مع ذلك من لوازمها . ولقد سبق من ابن الرومي الاعتذار من ذلك بأن سأل « أما ترى كيف ركب الشجر ؟ » .

ركب فيه اللحاء والخشب اليا بس والشوك بينه الثمر  
وكان أولى بأن يهذب ما يخلق ربُّ الأسباب لا البشر  
وكان ابن الرومي يرى أن الأدب فن يُزاول ويتعهد ويكون المرء له  
« أعنى الخدم » وينقطع له ويتوفر عليه وينحرف بسببه عن كل كسب ،  
ويبيت « يمرى فكره تحت الظلم » وأن للأديب من أجل ذلك حقاً على  
الناس وحرمة واجبة الرعاية ، وقدماً تستحق أن تثاب ، وأن من تناسى  
حقه فقد ظلم . فليس الشعر عنده عبثاً ولا هواً ، بل هو غاية الجهد ،  
وليس مطلبه بالسهل الميسر بل هو مغاصٌّ في درك اللجة « من دون درها  
الخطر » .

وفيه ما يأخذ التخير من غا ل ثمين ، وفيه ما يذر  
وهو فن حي ينشأ ويشب ويهرم ككل حي آخر :  
والشعر كالعيش ، فيه مع الشبية شيب  
ولا نكران أنه قال في آخر حياته :

حتام يا سائس الدنيا تؤخرني وإنني لنظير الصدر لا الكفل  
لكل قوم رسوم أنت راسمها ولست فيهم بذى رسم ولا طلل  
لا في التجار ولا العمال تنصني وإنسى لقليل المثل والبدل  
ولكن ذلك لم يكن لزراية على الأدب ، أو اغتماض لقدره بل هي لطفة  
على سوء حظه المادى . وكيف تعقل منه الزراية على فنه وهو فى القصيدة  
عينها يقول :

فى «دولتى» أنا مغضوب وفى زمنى عودى ظمئى بلا رى ولا بلل !

ومن أين جاءت « الدولة » وصار له « زمن » بغير شعره ؟ وحسبك شعوره هذا بأن له دولة وزمناً ، دليلاً على إكباره فنه . وليس هذا بالمخاطر العارض ، فإنه المتسائل في معرض هجاء لأبي اسحاق البيهقي :

أبيهقي يقول الشعر في زمني ؟      أولى له ، ما لمثل تنبع النبغة  
وما امتهاني به شعري ، وخلقت      تهجوه عني وعن غيري بكل لغة ؟

ولم يكن يقول كالعرب إن أمتهم أشعر الأمم ، وحكمتها أعظم الحكم ، بل كان يقول :

قد تحسن الرومُ شعراً      ما أحسسته العريب  
يا منكر المجد فيهم      أليس منهم صهيب ؟

وصهيب هذا ، ابن سنان ، صحابي أصله رومي وأسلم ، وفي نظرتة هذه اتساع وانصاف وخلو من عصبية كانت تكون منه متكلفة غير سائغة : وهو كما أسلفنا رجل مثقاف . وعنده أن الطفل إنما يبكي « لما تؤذن الدنيا به من صروفها » وأنه لذلك :

إذا أبصر الدنيا استهل ، كأنه      بما سوف يلقي من أذاها يُهدد

ويعلل ذلك بأن للنفس أحوالاً « تشاهد فيها كل غيب سيُشهد » وكأنه يريد أن يقنعك بأن هذا الرأي هو ثمرة التجربة ، وأنه لا يرمى به جزافاً ، ولا يلقيه على عواهنه ، ومن أجل هذا يمهد له بأنه إنما يذهب إلى ذلك بعد أن شابت رأسه ، وقوست قناته ، ودب الكلال في عظامه ، وتوَكَّأ على العصي . ولا غرابة بعد ذلك أن الدنيا عنده :

دارٌ غريب خيرها      وترى الشرورَ بها مُر به  
أدوت وغاب دواؤها      عن كل نفس مستطيه

والمرء منذ يولد إلى أن يوارى فى التراب « رهن النوائب » وحسبه من  
هذ النوائب فقدُ شبابه :

ولو لم يصب إلا بشرخ شبابه لكان قد استوفى جميع المصائب  
وما دام المرء يموت فليس فى العيش مغتبط ، وكل هو مشغلة عن ذكر  
ما يلاقيه المرء من الأحداث . وكيف يطيب العيش للإنسان وهو موقن  
بأن طيبه سيذهب كالحلم ؟

ومن كان فى عيش يراعى زواله فذلك فى يؤس وإن كان فى نعم  
وكر الأيام انتقاص من القوى . حتى الأبناء تخون وتنقص من المرء  
يزاد فى « الأبد » ويضاف إليه ، وهم عبارة عن قوى تستجدها الحياة بأن  
تنقصها من الأباء ، والمرء يسر بمولوده وهو لا يدري أن الزمان يهده بشد  
منه أبنائه .

ومن العجائب أن أسر بما يُشد . بأن أهد !

ولكن هذا ليس بعجيب إذ لولاه لما طلب الناس الذرية .

والمرء إذا أمل أن يعيش مثل ما عاش « فيا ويحه إن خاب أو أدرك  
الأمل » لأنه إذا طال عمره اكتهلت همته ولم يعد يجد ابتهاجاً بما كان  
يستهج به ، أو قدرة عليه أو بشاشة له :

وحسب من عاش من خلوقته خلوقه تعريه فى أربه  
وإذا فانت المرء متعة فهو غير مغبون فى الواقع ، لأن من يدرك شيئاً  
لا يزال قلقاً خائفاً يترقب افتقاده . أما من فاته متعة فهو مطمئن وقد أمن  
أن يُرزأها :

وكفى عزاء لا مرئ عن فانت أن لا يخاف عليه صرف زمان  
ومتى كان الأمر كذلك :

فلا تغبطن المترفين فإنهم على حسب ما يكسوهم الدهر يسلب

وسليم الزمان كمنكوبه ، وموفوره كمحروبه ، والممنوح مثل المنوع .  
والمكسور مثل المسلوب :

ومحبوبه رهن مكروهه ، ومكروهه رهن محبوبه  
ومأمنه تحت محذوره ، ومرجوه تحت مرهوبه  
وريب الزمان غذا كائن وغالبه مثل مغلوبه

فإذا غصبك الزمانُ حفظك فاستر نفسك فإن هذا السر لا يُغصب .  
ولا مفر على كل حال من القدر ، فطامن حشاك فإن ما تحب وما تكره  
واقعان بك لا محالة :

وإذا أتاك من الأمور مقدر وهربت منه فنحوه تتوجه  
والسعادة والشقاوة حظوظ . والحظ يأتي صاحبه وادعًا ، ويُعنى سواه  
ساعيًا :

إذا كان مجرى كوكب سمته هامة علاها ، وألا اعتاص ذلك مطلبها  
والذى يسعى ليدرك حظه « كسار بليل كى يسامت كوكبا » .  
ولو لم يسر ، وافاه لاشك طلبه بغير عناء بادئًا ثم عقبا  
ولا يحسب أحد أن ابن الرومى راض عن ذلك . وكيف يرضى عنه  
وهو لا يرى مطلب الدنيا يهون إلا للجهلاء والحمقى ؟

فليس ينفك ذو علم وتجربة من مأكَل جشِب أو مشرب رنق  
وذو الجهالة منها فى بُلهية من مسمع حسن أو منظر أُنق  
وهل يعد راضيًا من يقول :

تبارك العدل فيها حين يقسمها بين البرية قسمًا غير متفق !  
وقد أنغى فى قصائد شتى على الخطوط ، وعزى نفسه مرة بأن الصخر  
راجع الوزن راس ، وأن الدر شائل الوزن هاب ، ومرة أخرى بأن الجيف  
المتنتة هى التى تطفو على اللجة ، أما الدر فيكون تحتها فى حجاب ، وطورًا

بأنه لا وجه للعجب والألم من تخطئ الحظ لأصيل الرأى لأن الله خلق  
الناس بلا وير وكسا اليهائم « أوياراً وأصوافاً » ! وطوراً بأن هذه الدنيا  
ليست سوى جيفة ميت :

« وطلابها مثل الكلاب النواهس » !

وأنه لا محل لتفاضل الناس « بتفاضل الأحوال والأخطار » فإن هذا  
جور .

وإذا كانت الدنيا كذلك ، وكان الشر فيها غالباً ، فالحذر واجب والحزم  
فرض ، ليقل التجنى على المقدور . وعلى المرء إذا ظن شراً أن يخافه ! فرب  
شر يقينه مظهره .

كم ركون جنى عليك حذاراً من أطال الركون قل ركونه  
ولا تبتئ آمناً من أحد ، فأمّن ما يكون المرء إذا ليس الحذر من  
الخطوب .

ومن أمن النفس أن تخاف ، وأن تستشير الحزم ، والعدو مستفاد من  
الصدق .

فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب  
ومن الحكمة أن لا يقذع المرء الحاكم في أيامه ، خوفاً لسطوته بل حتى  
إذا أصابه الزمن بصرفه ، حذراً من رجعه .

فليعلم الرؤساء أنى راهب للشر ، والمزهب من أسبابه  
واعلم أن الناس من طينة خسيصة « يصدق في الثلب لها الثالب »  
لولا علاج الناس أنخلاقهم إذن لفاح الحمأ اللازب  
وأديم الإنسان من أديم الأرض ، فهو مثلها خسيس ، والنفس تلوم  
رجوعاً إلى طينتها ، واللوم مركوز في الطبع البشرى ، مركب في الجبلات :  
ولا بد من أن يلوم المرء نازعاً إلى الحمأ المسنون ضربة لازب

حتى النفس الكريمة لا مفر لها من رجعة إلى هذا الحمأ المستون « ثم تكرم » . والشرين الناس عام مشترك ، وهو الأصل ، أما الخير فيهم فقير مشترك . والضعيف في الدنيا موطأ مهين ، والقوى محترم مرهوبة شيرته . والخير المسالم أو المقلم الأظفار لا يعياً به أحد أو يحسب له حساباً .

لا بدع ! إن الحرب مرقوبة والسلم لا يرقبه راقب ولهذا كان الحلم ضعفاً ، وكانت رقابُ أهله مقصودة بالهوان ، فلا بد من ادراع الجهل فوق الحلم ، وإلا اعتمد المرء بالإساءة واستخف به الناس واستطاعوا عليه .

من صونك الحلم أن تدفعه الجد هل فظاھر من دونه زرد وأكثر الناس يتسخون طلباً للحمد ونفاقاً ، ويتكلفون التمدى ولكن الكريم ليس الذى يعطى عطيته عن ثناء أو التماساً للذكر بل الكريم الذى يعطى عطيته لغير شيء سوى استحسانه النفلا ومن كان هذا شأنه فهو لا يذل العرف ليصيد به محمداً ولا يمن على من يقلده منه .

والإحسان الذى من هذا الضرب آنس للقلوب ، والنفس إذا تذكرت أباديها الخالصة لوجه الله « أفأقت من معالجة الكروب » . والتعمى قيد ، ولكنها إذا قبلت بالشكر زال القيد ، وتكافأ المنعم والشاكر ، لأنه إذا كان المنعم قد جاد بماله أو جاهه ، فقد جاد الشاكر من فؤاده .

ولقد كافأ بالنعى امرؤ كافأ النعمى بإخلاص الوداد ولا ينبغي أن تكون الفضائل ياعثها الرغبة أو الرهبة .

أحب قوماً لم يحبوا ربهم إلا تفردوس لديه ونار ؟

والخلف الكاذب جائز عنده مع الاضطراب وضيق الحال :

وإني لذو حلفٍ حاضر إذا ما اضطرت وفي الحال ضيق  
وهل من جناح على مرهق يدافع بالله ما لا يطيق ؟

والخشمة - محبوبة بين الصديقين لتحجز بينهما وبين العقوق ، أما التبسط  
الذي يؤدي إلى بخس واجبات الحقوق فلا حياء هذا وأقبح به !

\*\*\*

(ب)

قد بلغنا ، ولا حمد ، أعوص مسائل ابن الرومي . وتعنى بها نظراته  
فى فلسفة الجمال . وليس وجه الاعتياص أن فى شعره غموضاً أو التائناً  
أو اضطراباً يدفعك إلى الشك فى تأويل نظراته ، أو التردد فى حملها على  
ما يغريك به بعضُ كلامه . كلا ! فإن ابن الرومي شاعر مشرق الديباجة ،  
ناصر الأسلوب ، واضح المحجة ، وهو غوّاص لا يستخفه ما يعن له فى  
أول الخاطر ، ومصفى يأبى أن يدع ذرة تغفلت ، ودقيق دوار العين يطلب  
الإحاطة بجوانب ما يتناول ، وملحاح لا يجترئ بأن يدفع إليك الفكرة  
تاضجة تامة ويدعك وشأنك معها ، بل يبرزها لك كلما عرضت مناسبة  
ليفسرك على الالتفات إليها والعناية بها ، حتى كأنه لا يطمئن إلى ذكائك  
وقدرتك على الالتقاط والتفطن . وإنما وجه العسر والمشقة هو كيف تتناول  
الموضوع ؟ ومن أية ناحية نظره ؟ وماذا تأخذ وماذا نذر ؟ وما يضاعف  
المشقة أننا لا نحب أن نظل نكتب عن ابن الرومي إلى آخر العمر ! وأحر  
بأن لا نفرغ منه إذا أردنا الاستقصاء . إذ كان معنى الاستقصاء أن نضع  
نحن كتاباً ضخماً له أولٌ وليس له آخر فى فلسفة الجمال ، وأن نعتسف  
من أجل ابن الرومي وإكراماً لخاطره ولسواد عينيه - إن صحَّ أنهما كانتا

سوداوين ! - تلك الوعور التي زحم بها الطريق أفلاطون وأرسططاليس  
وبلوتيناس من القلماء ، وكانت وشلنج وهيجل وشوينهور وهربارت  
ولسنج وجيته وشيلر ومثات غيرهم من الألمان ، ويربوقيروتين وليفيك  
وسواهم من الفرنسيين ، وهتشنسون وشفتسيرى وریدورسكن وهوم وبيرك  
واليزون ووين وسينسر من الإنجليز ؛ وأن نحاول أن نقامس فى ذلك اليوم  
الطامى كل هاتيك الحيتان الفظيعة ! لا يا سيدى القارئ عفوك! قلنى كلين  
الرومى لو أقيت فى هذا البحر « وصخرة ، لوافيت منه القعر أول راسب ! » .  
ولم أتعلم قط من ذى سباحة

سوى الغوص ، والمضعوف غير مغالب

وكما كان أيسرُ إشفاقه من الماء أن يمر « به فى الكوز مرَّ المجائب »  
كذلك أيسرُ إشفاقى من مباحث أصحابنا هؤلاء أن لا أقرب الرفء الذى  
فيه كتبهم ! وإذا كتب الله لى أن أفتحها أغمضتُ عينى ! ولقد كنت فى  
بعض ما سلف من عمرى جريئاً ، وكنت لا أتهيب كل التهيب أن أفتح  
واحدًا من هذه الكتب ، ولكنى كنت لا أكاد أعبر بضع صفحات حتى  
أحسُّ كأننى مُطلٌّ من زحلوقة على هاوية سحيقة ، فتفرج شفتاى عن  
صوت كهذا « بورررر ! » فأرفع رأسى فزعاً ، وأمسك بجوانب الكرسي  
حتى تطمئن نفسى ويذهب عنى الروعُ وأحمد الله على السلامة !

إذن فما العمل ؟ وكيف نتم - على أى وجه - ما بدأناه من الكلام  
عن ابن الرومى ؟ الحق أقول لك ، أيها القارئ ، إننى لا أدرى ! وقد بدأتُ  
أشعر لابن الرومى بغيظ واضطغان لدفعه إياى إلى هذه المأزق المريعة .  
ولقد حدثتنى نفسى أن أبتز الكلام مكتفياً بما سبق ، وأن أجعل الختام  
هجاءً له ! - لكنى ذكرت قوله :

رقاذك ! لا تسهر لى الليل ضلة  
أبى وأبوك الشيخ آدم ، تلتقى  
ولا تنجشم فى حوك القصائد  
فلاتهجنى!حسى من الخزى أننى وإياك ضمتنى ولادة والد

فعضضت شفتى وعدلت ! وبدأ لى أن أضرب صفحاً عن الشواهد  
على قدر الامكان ، لأنها آلاف مبشرة لا يتسع لنقلها المقام ، وأن أورد  
ما يدل عليه شعره ، أى أن أقدم للقارئ صورة عامة مجملة عن آراء ابن  
الرومى وأن أدع له رسمَ الخطوط التفصيلية إذا شاء . ولماذا لا يتعب  
القارئ قليلاً ؟ ما الذى يوجب على الكاتب أن يتكلف كل ضروب العناء  
حتى لا يحوجه حتى ولا إلى « هضم » الفكرة ؟ ماذا يصنع القارئ برأسه  
هذا الذى فوق كتفيه ؟ أليس أجدى عليه أن يحتاج إلى التفكير بنفسه  
ولنفسه حتى لا يعتاد الكسل ، وحتى لا يعود رأسه حملاً على كتفيه ؟ هذا  
أصلح ولا شك ! فإن كان لا يعجبه هذا ، ولا ترضيه طريقتنا الجديدة ،  
فما عليه إلا أن يقف عند هذا الحد ولا يمضى فى قراءة المقال ! والآن  
فلنبداً :

من أول ما يلفت النظر فى شعر ابن الرومى نوعُ إحساسه بالطبيعة .  
فهو لا يحسها ولا يتأملها إلا إحساساً شعرياً ؛ ونعنى بذلك أن خياله  
ينشط ، وأنه حين يتدبر قواتها ومباهجها وحالاتها المتنوعة ، يفيض من  
حياته عليها ، ويعبرها من إحساسه وخوالبه حتى تعود فى نظره حية  
نابضة مثله ، لها حسٌ وروح وذاكرة ، بل إرادة . نعم إرادة ! وحسبك  
أن تقرأ له هذا البيت من جيمته التى يرثى بها أبى الحسين العلوى .

لمن تستجد الأرض بعدك زينة فتصبح فى أثوابها تبرج ؟  
فإنك على أى عمل حملته ، وكيفما أولت صدر البيت ، لا تستطيع  
أن تهرب من الشعور بأن هذه الأرض -- التى « تسمى الأرض أحياناً » --

ليست مادة خالية من الحياة ولا صورة ميتة . على أن الطبيعة عنده مسخرة للحياة ، فهي دونها وبعضها ، ووسيلة إلى تحقيق غاياتها ، وليست نوعاً من الحياة قائماً بذاته مستقلاً عن حياة الإنسان . وهذه نظرة واضحة العلة ، لأنه بعد أن يريق عليها من فيض حياته هو ، لا يسعه إلا أن يشتمل عليها أو يجعل الحياة نفسها مشتملة على الطبيعة معه .

وقد تراه ، أحياناً ، حين يصف منظرًا ، لا يكفى بأن يعزو إليه الحياة والحس ، بل يكاد بخياله يتسرب في خلال هذا المنظر ويغيب في أنثائه ، لا من الوجهة المادية بل من حيث الاحساس . ونظن أن هذا الكلام يحتاج إلى مثل يُضرب ويستعين به القارئ على فهم المراد فنقول : هبك تنبهر هيكلًا من الهياكل المصرية القديمة مثلاً فإنك إذا كنت قوى الخيال أو نشيطه ، وأرقت على هذا الهيكل بعض حياتك أمكنك أن تتصور أن هذه العمد ليست حجارة مرفوعة يستوى فوقها سطح ويتزن ، بل هي مثلاً حركة صاعدة مستمرة ، أو قوى حية تعالج أن تقاوم الضغط الواقع عليها الذى يريد أن يهبط بها . ولست تستطيع أن تتصور ذلك دون أن يخالجك إلى حد كبير نفس الاحساسات التى تفيضها على هذه العمد وما فوقها - وابن الرومى حين يصف الطبيعة يعبرها روحه ، ويضع نفسه موضعها ، ويفضى إليك بإحساسه معزواً إلى الموصوف . ولكنه مع هذا لا يفقد شعوره بنفسه وبالعالم ، ولا يكون كالمسحور ، بل يظل متفطنًا إلى حقائق الدنيا اليومية ، فكأن شعوره مزدوج : يقبل تصوير خياله للحقيقة ، ويتعلق به ، ويكبحه عن القلو والاستغراق المفرط الاقرار الباطن للحقيقة الملموسة وراء ذلك . وليس يخفى أن الأمر فى هذين يتوقف على عنصر النشاط الخيالى الذى يختلف باختلاف الناس ، وعلى مقدار الاختلاف فى التجارب السابقة ، وعلى طبيعة المزاج وغير ذلك مما يدفع إنسانًا إلى إثارة المراتب ،

وآخرَ إلى التعلق بالأصوات ، وهكذا .. مما يجعل مجال الخيال وعمله فيما يتناوله الحس ، مختلفاً باختلاف الناس .

وواضح من شعر ابن الرومي أن إحساسه بالجمال فى الطبيعة وفى الإنسان لم يكن من طريق النظر والسمع وحدهما ، بل كان لحواسه الأخرى ، ولا سيما اللمس والشم ، حظٌّ وافر من القدرة على إفادة الاستمتاع بالجمال . فكان إذا نظر مثلاً إلى زهرة يكاد « يلمسك » غلائلها من وصفه لها ، ويشمك أريجها ويشعرك كأنه يمسحها بكفه فى رفق ، ويدنيه من أنفه فى سكر ، وكان حظُّ الشم عنده عظيماً أيضاً . غير أن أوفر الحظوظ للسمع والعين ومن حقهما ذلك ولا سيما عند ابن الرومي الذى « يكاد » يدور كل إحساس له بالجمال فى الطبيعة وفى الإنسان على « الغريزة النوعية » وذلك لأن النظر والسمع ، لكونهما يستطيعان أن يتناولوا المرئى والمسموعَ عن بُعد ، يسمحان بأن يشترك فى المنظور أو المسموع ، خلق كثير - وذلك أيضاً ما تستطيعه حاسة الشم إلى حد كبير . ومن هنا كانت حاستا النظر والسمع ، ثم حاسة الشم ، حواساً اجتماعية ، أى أن بها - ولا سيما بالأولين - يتمكن أكثر من فرد واحد من الاشتراك فى التأثير بالجمال ، ولذلك كانتا هما الحاستين الفيتيتين ، لأنهما وسيلة مشتركة للإحساس بالجمال ، ولمضاعفة هذا الإحساس وتقويته بتأثير التعاطف . وإذا شئت دليلاً محسوساً على ذلك من عصرنا الحاضر فالتمسسه فى نجاح المسارح التمثيلية ودور الغناء والرقص والصور المتحركة وما إليها . أضف إلى ذلك أن الإحساس من طريقتيها أصفى وأسمى ، إذ كانا أبعد أخواتهما عن وظائف الحياة الضرورية وحاجاتها الملحة ومطالبها المقلقة . وهما يحضران إليك الأشياء المادية فى أقل حالاتها إزعاجاً . لأن الأشكال والألوان والأصوات ، إذا قيسَت بما يلمس ويتصل

من طريق اللمس بأجسامنا ، أشبه بصورٍ للأشياء المادية أو رموزٍ بعيدة لها ،  
ومن أجل ذلك كانت هاتان الحاستان أصلح من غيرهما لأن يكونا أداةً إلى  
الاستمتاع الفنى بالجمال .

وقد كان ابن الرومى كما أسلفنا يرى الطبيعة مسخرةً للحياة ومعوناتاً  
على حياة الفرد وحياة النوع أيضاً . فهو القائل :

|                              |                              |
|------------------------------|------------------------------|
| إذا شئتُ حيتنى رياحين جنة    | على سوقها فى كل حين تنفس     |
| وإن شئتُ ألهانى سماعٌ بمثله  | حمام تغنى فى غصون توسوس      |
| تلاعبها أيدى الرياح إذا جرت  | فتسمو وتحنو تارة فتكس        |
| إذا ما أعارتها الصبا حركاتها | أفادت «بها أنس الحياة» فتؤنس |
| توامض فيها كلما تسمع الضحى   | كواكب يذكرونها حين تشمس      |

والقائل فى وصف روضة :

ورياض تخايلُ الأرض فيها خيلاء الفتاة فى الأبراد

وتأمل إلى جانب هذا البيت قوله فى نسوة .

وميسن فى حلل الأفواف عاطرة فخلتهن لبس الروض أفوافا

فالروضة كأنها الفتاة تميس فى برد مفوّف ، والفتاة كأنها الروضة فى  
وشيحها المطرف ؛ وكما أن المرأة تتجمل وتزين وتتعطر وتندهن لتملك قلبَ  
الرجل وتستولى على هواه حين تبرز له ، كذلك الطبيعة فى الربيع :

|                           |                            |
|---------------------------|----------------------------|
| أصبحت الدنيا تروق من نظر  | بمنظر فيه جلاء للبصر       |
| أثبت على الله بآلاء المطر | فالأرض فى روض كأفواف الخبر |
| نيرة النوار زهراء الزهر   | تبرجت بعد حياء وخفر        |

تبرج الأنثى تصدت للذكر

والمرأة إنما تتجمل وتتحلّى للرجل ، لا حباً فى الزينة ولا طلباً للتجمل من حيث هو وباعتباره غرضاً فى ذاته . وإنما تفعل هذا لأنه بعض سلاحها الذى تفنص به الرجل لتؤدى وظيفتها التى خلقت لها ، وهى المحافظة على النوع . وكذلك الحياء ، عنده ، سلاحٌ جنسى ، لا تتكلفه المرأة ولا تصنعه ، ولكنه من الصفات التى تضيف إلى جمالها وتجعله أفتن لللب وأسحر للقلب . والمرأة حين تفوز بإرضاء عاطفتها الجنسية لا تعباً بالتجمل ولا تحرص على زيتها أو حياؤها أو دلالها ، أو غير ذلك من أدوات قصصها ، إذ لم يبق لها من محل أو عمل . وله فى ذلك أبيات ليس أعمق منها ولا أصدق ، وإن كان فيها فحش كثير ، ومنها :

تجمل الحسناء كل تجمل حتى إذا ما أبرز المفتاح  
نسيت هناك حياؤها ودلالها شبقاً، وعند الماح ينسى الداح !

وليس الجمال عنده شكلاً فحسب ، بل هو أيضاً « تعبير » وهو فوق هذا يأبى أن يكون له حدودٌ ينحصر فيها ويقتصر عليها ويسهل تعديدها ، ثم هو ، إلى هذا ، صفة يتعذر التفريق الدقيق بينها وبين ما هو إليها من الصفات . وما عليك إلا أن تقرأ له داليتة فى وحيد المغنية ، وكان مشغوفاً بها . وفيها يقول :

وغرير بحسنها قال صفها  
يسهل القول انها أحسن الأشياء  
تغنى كأنها لا تغنى  
لا تراها هناك تجحظ عين  
من هدوء وليس فيه انقطاع ،  
قلت أمان : بين ، وشديد  
طراً ، ويصعب التحديد  
من سكون الأوصال ، وهى تجيد  
لك منها ، ولا يدر وريد  
وسجؤ وما به تليد

وفى صوتها يقول :

مَد فى شأْوِ صوتها نفسٌ كا  
وارقُ الدلال والفنج منه  
فتراء يموت طورًا ويحيا  
فيه «وشى» وفيه «حلى» من النغم  
ف ، كأنفاس عاشقها ، مديد  
ويراه الشجى فكاد يبيد  
مستلذٌ بسيطه والنشيد  
مصوغ « يختال » فيه القصيد

ثم يقول مستغربًا مجيبًا :

ليت شعرى إذا أدام إليها  
أهى شىء لا تسأم العين منه ؟  
بل هى «العيش» لا يزال متى استعُر  
منظر ، مسمع ، معان من اللهو  
كرة الطرف مُبدئ ومعيد  
أم لها كل ساعة تجديد ؟  
ض يملئ غرائبًا ويفيد  
عتادًا لما يجب عتيد

وبهذا البيت الأخير يفتن إلى ما فطن إليه شيللر الشاعر الألماني ،  
وتابعه عليه سبنسر الإنجليزي ، من العلاقة بين الاحساس الفنى بالجمال  
وبين اللهو الذى هو نتيجة الفائض من النشاط العضوى .

وقلَّ من بين شعراء العرب أو غيرهم من يقارب ابن الرومى فى دقة  
احساسه بالجمال فى جميع مظاهره وأشكاله ، ولقد فقد شبابه وبكاه فى  
عدة قصائد ، فكان أكثر ما بكى منه أن فقد به القدرة على التمتع بالجمال .  
اقرأ له قصيدته التى مطلعها :

أين ضلوعى جمرَةً تتوقد على ما مضى أم حمرة تتجدد

وتأمل قوله فيها :

وفقدُ الشباب الموتُ يوجد طعمه صراحًا ، وطعم الموت بالموت يفقد

فماذا تراه فى ظنك ييكى بهذا البيت ؟ الموت فى الحياة ؟ وماذا يكون  
هذا إلا ما ذكرنا ؟ ثم قوله بعده :

|                                |                               |
|--------------------------------|-------------------------------|
| سلبت سواد العارضين ، وقبله     | بياضهما المحمود إذ أنا أمرد   |
| وبدلت من ذاك البياض وحسنه      | بياضاً ذميماً لا يزال يُسود   |
| لشتان ما بين البياضين : معجب   | أنيق ، ومشنوء إلى العين أنكد  |
| وكنت جلأً للعيون من القذى      | فقد جعلت تغذى بشي وترمد       |
| هى الأعين النجل التى كنت تشتكى | مواقعها فى القلب، والرأس أسود |
| فما لك تأسى الآن لما رأيتها    | وقد جعلت مرمى سواك تعمد ؟     |

إلى أن يقول فى انصراف نبل الغانيات عنه :

|                           |                               |
|---------------------------|-------------------------------|
| إذا عدلت عنا وجدنا عدولها | كموقعها فى القلب ، بل هو أجهد |
|---------------------------|-------------------------------|

ثم صرخته :

|                         |                            |
|-------------------------|----------------------------|
| أيام لهوى هل مواضيك عود | وهل لشباب ضل بالأمس منشد ؟ |
|-------------------------|----------------------------|

obeikandi.com

## خاتمة

أخطأ حسابى وحسابُ الناشر ، فجاوز الكتاب ما كنا نتوقع له ، وما كان العزم أن نقصره عليه ، فمعدرة إذا كنا قد أسأنا بالاطالة ، وضاعفنا بها بواعث الملالة !

والكتاب ، كما هو الآن فى يد القارئ ، يمثل منزع الناشر أكثر مما يمثل نفس الكاتب . فقد أبى إلا أن يخليه من نقد المعاصرين ليرى نفسه من حماقات المعاتين ! وحسنًا فعل ، أو شرًا فعل ، كما تريد ! ومن الذى يستطيع الراحة ولا يستريح ؟ غير أن الكتاب بهذه الصورة يعرض منى جانبًا ويظوى جانبًا ، ويصور للقراء لين ملمسى ويستتر أظافرى ، ويدينى مفتر الثغر منزوع النيوب مقلوع الضروس ! . ولست أبال كيف أبدو للقارئ ! وما كنت لأعنى بجمع هذه أو تلك من مقالاتى ونشرها ، بعد أن طويت مع الصحف التى ظهرت فيها ، لولا أنى فرجت بذلك أزمة كانت مستحكمة ! وما أرانى أنقذتها أو أحيتها ، بل بعثتها من قبورها لتلقى حسابها ! ولعله كان خيرًا لها أن تظل ملفوفة فى أكفانها !

وأحسبني بعد أن صارحت القارئ بهذا الذى لم يكن يعلمه ، لا أحتاج أن أقول إنى لا أكسب للأجيال المقبلة ، ولا أطمع فى خلود للذكر . وهل ترى ستكون هذه الأجيال المقبلة محتاجة - كجيلنا - إلى هذه البدانة ؟ أليست أحق بأن يكتب لها نفرٌ منها ؟ أمين العدل أم من الغبن أن نكلّف الكتابة لجيلنا ولما بعده أيضًا ؟ تالله ما أحق هذه الأجيال المقبلة بالمرثية إذا كانت ستشعر بالحاجة إلى ما أكسب !! ليتهمها غيرى بالعقم إذا شاء !

ويرى القارئ في كتابي هذا مقالاً كان في الأصل مقدمة لكتاب جمعت فيه ما نقدت به شعر حافظ منذ أكثر من عشر سنين . وللقارئ الحق أن يستغرب أن أنقل مقدمة كتاب مطبوع وأن أدسها هنا . ولهذا سبب لا أرى بأساً من إيضاحه : جمعت فيما مضى نقدي لشعر حافظ وطبعته ونشرته ، وبعث منه عدداً ليس بالقليل ، ثم أخذ الشراء يطئون عليّ ، فضقت ذرعاً بما بقي من نسخه ، فحملتها إلى بقال رومي اشتراها مني بالإاقة ! وعزيت نفسي عن ذلك بقولي لنفسى إن جين الرومي وزيتونه أحق بهذا النقد ! ؟ ثم مضت عشرة أعوام وبعض عام وشرعنا نطبع « حصاد المشيم » هذا ، وأنا لماضون في ذلك إذ جاءنى صديق يعودنى ، وكنت مريضاً ، وأطلعنى على صحيفة ينشر فيها بعضهم نقداً لشعر حافظ ، وأكثره مسروق من قديم نقدى !! وسألنى الصديق « أنت الكاتب ؟ » قلت « كلا ! » .

قال « إذن فهى سرقة يحسن التنبيه إليها » .

وألح عليّ فى ذلك ، فقلت له « اسمع ! زعموا أن لصاً تسلل إلى بيت فالفاه أفرغ من فؤاد أم موسى ! وعزّ عليه أن ينقلب صفر اليدين ، أو كما يقول العربُ رحمهم الله ، أو ما شاء فليصنع بهم ، خالى الوفاض بادئ الأنفاض ، فواصل البحث وهو مغيط محقق ، فما راعه إلا رجل فى بعض الغرف مخبئ فى ركن ، ووجهه إلى الحائط . فلما ثابت إليه نفسه بعد الدهشة ، قال لعله لص مثلى وضحك ! ودنا منه فلم يتحرك ، فوضع يده على كتفه فى رفق وسأله « من أنت يا هذا ؟ وماذا تصنع هنا ؟ » .

فاستدار الرجل وقال ، ووجهه إلى الأرض « أنا صاحب البيت !! وقد شعرت بدخولك وأدركت غرضك فتواريت منك خجلاً !! » .

وأنا يا صديقى كصاحب هذا البيت العارى ! أستحى أن أنبه إلى  
سطو صاحبنا المتلصص على نقدى ، مخافة أن يتنبه الناس إلى ما أرجو  
مخلصاً أن يكونوا قد نسوه من أنى أنا كاتب ذلك الهراء القديم ! ومن  
أجل ذلك أهب ليلتنا ما عدا عليه وبزنى إياه ، وما أسهل أن يهب المرء  
غير شيء !!

فضحك صاحبي وانصرف ! وخطر لي بعد أن وهبت النقد لسارقته  
أن أمنتقد المقدمة .

ولم يبق مما أريد أن أقوله فى هذه الخاتمة سوى كلمة واحدة : هى  
أنى مستغن عن نقاد المتحذلقين عن كتابى هذا ، وقانع باستحسان  
أمثالى من الأوساط المتواضعين وهم بحمد الله كثيرون فى هذا البلد الأسمى !  
بل أكثر مما يلزم لى !

٢٨ يناير سنة ١٩٢٥

إبراهيم عبد القادر المازنى